التربوي (13)

الدروب المتقاطعة

الدكتور/ عمر محمد العماس

نصيحة!

عزيزي القارئ.....

أوصاني **(ود حمدان)** ناصحاً وقال:

(لا تقرأ كي تحفظ.....

بل...

إقرأ كي تتعلم.....).

المؤلف

إهداء

إلى الدكتورة/ سعيدة محمد العماس

ذات القلب الصادق....
المشبع مروءة .... وعطاء سخياً،
يفيض جلُّه في مساعدة الآخرين،
زادك الله"....
بذلاً، وسخاءً، وجزاءً موفوراً....
مع وافر الصحة وطول العمر.

المؤلف

المقدمة

أنا .... وأنت....،

عزيزي القارئ.....

توجّب علينا أن نكون ***(متعلمين)*** *طيلة أيام عمرنا،*
في دأب متواصل،
ننقّب في خفايا ما نعثر عليه من مصادر...
نُوغل التعمق في دواخلها المتشابكة،
الشائكة أحياناً...
والمورقة المزهرة في أوقاتٍ أُخر.

نُفاجأ بالجديد المتواثب، الذي يتوق ويتطلع،
إلى التحرر....
من أروقة... و دهاليز الكبت... و السجون المغلقة،
متدافعاً نحو آفاق مشرقة،
وإلى فضاءات مضيئة...

عزيزي القارئ.....

إننا قد نتصادم ونتلاقى،
مع ***العنت و مع القسوة المدمية،***
ونحن نقلب بعضاً من صفحات مطوية،
أبلاها القدم....
وأخنى عليها الدهر...
فخلدت تتمحور،
وتتلوى وجعاً...
بين طيات عالم محزون،

لم تأتها السانحة أبداً كي تعلو إلى السطح وتطفو،
فتنفض عنها عوالق تلك السوالف،
من السافيات،
*لتمنح الكل رشفاتٍ من فيض **الدعة وراحة البال**،*
فهما يمثلان عصارة مكونات...
لم تتكشف بعد.

*لقد اجتاحتنا.. **عزيزي القارئ**.....!*
*نسمات **(التعلم)** الهادئة الهانئة،*
فتعالت أصواتنا.. و تنامت قدراتنا....
*وقد اقتحم بنا **(ود حمدان)**،*
ذلك الرجل الحقيقي.....،
*تلك المسافات المترامية... من **عمره القلق**،*
في ثوب من الرشاقة والمرح والحزن أحياناً....
*بساحات **(كردفان)** الرحبة.*

من هنا.....
*قادنا ذلك **(التعلم)**....*
إلى صور.. بثتها رحلات معرفية،
*بأرض **(المغرب العربي)** الخيّرة.*
طافت بنا كثيراً في أرجاء المعرفة،
وتوقفت بنا كثيراً عند أفياء...
لظلال وارفة،
أضحت لنا رفيقاً حميماً في مسعانا.

عزيزي القارئ.....

علينا أن نحمد الله على نعمائه تلك،

وعلينا أن نرعى ما هو لنا في ***التعليم....***

وما يخص الآخرين من حولنا فيه.

فباسم الله نبدأ،،،،،،

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

التعليم المفقود

يحق لي ويحق لك ..... ***عزيزي القارئ،*** ولكل فرد من أفراد البشرية جمعاء، أن نتحدث فرادى أو جماعات عن **التعليم** وماهيته، وما له وما عليه من تبعات، أضحت مركز همنا، ومحط أنظارنا. كما يحق لنا أن نتناول كل ما يتضمنه من **معارف، ومهارات، ونمو، وتطور**، وما إلى ذلك من مسائل نوقن أنها تخصنا، سوى أن كان في ماضينا أو في حاضرنا أو في مستقبلنا. نبحث من خلالها ونجوس في بواطنها عن مواطن السعادة والرفاهية، لكل فرد منا.... أو لكل جماعاتنا المنتشرة في كل الأمكنة والبقاع، وعبر أي زمان كان.... في عالم يضج بما تضيق به مناحيه، بزخمنا الذي لا يتوقف .... ولا ينضب، وإفرازاتٍ منّا ندسها من غير تخطيط أو وصف، مما يجعلنا نتوه على غير هدى..... فنعود ننكأُها من جديد، لنقحمها في متاهات:

التعديل، والتغيير، والتجديد، والتحسين، والنمو، والتطور....

كلها كلمات تحمل معانٍ علمية سامية، كثيراً ما لاحقتنا فيها اللعنة.... ونحن نتناولها ونجترها الواحدة تلو الأخرى، كل منا يفسرها بما يحلو له، ويصوغ لها المعايير كما يرى، غير أن الهدف المنشود منها واحد أبداً، وغالباً ما تحمل الطريق **المؤدية إليه:**

"تحقيق تطلعات الفرد منا، وتطلعات مجتمع البشرية جمعاء، أو حتى في أضيق نطاق لذلك، وهو ما يختص بالمجتمع الصغير من حول الفرد".

إنّه ومن خلال ما عرضنا في الأسطر السالفة، يصح لنا أن نطلق على الفرد البشري الذي يقوم بهذا النشاط مسمى **(المتعلم)**، علماً بأن كل أبناء البشر ما هم إلا **(متعلمين)**.... أوليس أنا قد أُمرنا ومن منطلق مضامين ديننا الحنيف **أن:**

نطلب العلم من المهد إلى اللحد؟

عليه فنحن **(متعلمون)** طيلة فترة حياتنا الدنيوية بكاملها.

و مأمورون أيضاً بما جاء في الحديث الشريف:

(إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً،
واعمل لأخراك كأنك تموت غداً).

من هنا جاءت وتدفقت المقولات المتواترة، فيما يختص بالتعليم، من العلماء التربويين، عرباً كانوا أم عجماً، فطفحت تعبيرات **مثل:**

التعليم المستمر، والتعليم مدى الحياة، وتعليم المستقبل، وتعليم الكبار، وغير ذلك الكثير مما هو مستحدث، إلا أنه لم يتزحزح بعيداً عما ورثناه، نحن المسلمين، من السلف الصالح.

إذا ما أجلنا فكرنا على الماضي الذي ولّى من حيواتنا وعبر كل الأجيال السالفة، من خلال ما مارسته وابتدعته في كل المجالات الحياتية، وعبر كل المتطلبات، والتطلعات، والرغبات، الناتجة عن مزاولة نشاطات حياتها، في مختلف أنماطها وصفاتها، تحت كل الظروف، القاسية منها والهينة.... وعبر تقلب ظروفها البيئية

المتمددة ما بين الشدة والسهولة.... وعبر كل النزاعات، والانتماءات، والميول الفردية والجماعية، **كالقبلية والقومية والجهوية** وغيرها، مما يظهر التكتلات والتحزب.....:

"إنه و من بين كل هذا وذاك، نستخلص كل ما حدث من نمو وتطور في المناحي المتعددة، لدى ذلك الشتات البشري.... الذي نلحظ قوة تشتته تلك.... كلما امتدت الحقب وتنامت أعداد الأمة".

لقد نال التعليم نصيبه من ذلك **النمو** ومن ذلك **التطور** الكثير.... إلا أننا وفي هذه السانحة، يسرنا أن نتعرض للمعنى الذي يعنيه **النمو** وذلك الذي يعنيه **التطور**. قد يخال للبعض أنهما مترادفان، أي أنهما يحملان نفس المعنى.... غير أن الفارق فيما بينهما كبير جداً، إلا أنه لا يمكن لأحدهما أن يتحقق دون الآخر.

يعني النمو:

الزيادة في الحجم، أو الزيادة في العدد، أو الزيادة في الكمية، فمثلاً:

إذا أحضر الشخص إناءً اسطوانياً سليماً، وأخذ يرمي بداخله بعضاً من ثمرات البلح، الواحدة تلو الأخرى، لمدة لا تتجاوز الخمس دقائق.... من غير توقف، فإن الفرد المتتبع للعملية يلاحظ:

- **زيادة عدد الثمار.**
- **زيادة حجم كومة الثمار.**

كما أنه إذا ما صب الشخص سائلاً كالماء مثلاً، في ذاك الإناء، فإنّ المتتبع للعملية أيضاً سيلاحظ ازدياد كمية السائل في فترة وجيزة.

ماذا يعني ذلك؟

يعني أنّ نموا قد حدث في كلتا الحالتين.

مقارنة بحالة النمو هذي:

يمكن للفرد أيضاً أن ينمّي في ذاته قدراً كبيراً من المصادر المعرفية والمهارية وغيرها، والتي بلا شك.... ستنعكس على أسلوب حياته.

أما في حالة التطور:

فلا يعني ذلك:

كم يملك الفرد من المصادر، بل كم يمكنه أن يفعل بما يملكه، وهذا بلا شك سينعكس على أسلوب حياته.

ألا ترى عزيزي القارئ أن الفارق كبير بينهما؟

قد يعني التطور أيضاً:

رغبة الفرد وقدرته على تلبية حاجاته الخاصة، ورغباته،

وحاجات ورغبات الآخرين المشروعة.

في شرح وتعريف الرغبة المشروعة أورد العالم التربوي **راسل ل. آكوف:**

(هي عندما لا يؤدي الشعور بالرضا إلى الحد

من رغبة وقدرة الآخرين على التطور).

قد يعني التطور أيضاً:

(التعلم) أو (زيادة كفاءة الفرد).

من هذا المنطلق يمكن لنا أن نقول:

"أنه لا يمكن لفرد ما أن يتعلم إنابة عن فرد آخر، وعلى نفس المنوال فالتطور يخص الفرد بعينه.... ومن هنا نبعت فكرة التطور الذاتي للفرد، والذي لابديل له في عملية التعلم أو التطور".

(التعلم) هو ناتج عملية التعليم.... وبذلك تعتبر غاية التعليم هي (التعلم)، وبناءً عليه.... يصبح لزاماً علينا ك...(تربويين)، أن ننحى بالعملية التعليمية، المنحى الجديد المتطور، لبلوغ تلك الغاية.

يخطئ الكثير منا حينما يتطرقون لتوصيف التعليم بأنه:

(فعل.... أو عملية نقل المعرفة أو المهارة....أو التدريس....أو الدراسة)،

حيث يتم معظم ذلك عن طريق التلقي والاسترجاع، ومتابعة الحفظ بالتكرار والاجترار المتواصل للمعلومة، فذلك هو الذي يؤدي إلى بقاء المادة في ذاكرة المتعلم، لفترات قصيرة ومحدودة، لم تتح له من خلالها الفرصة، كي يقوم بتطبيقها على أرض الواقع بالقدر الأوفر، فسرعان ما يطويها النسيان ومن ثم الزوال.

إنّ التعليم في صورته المذكورة تلك، يتمتع بأهداف جمة تتراوح ما بين ما هو معلوم وما هو خافٍ عن الكثيرين. ومن بينها تلك التي لا يتطرق لها المهتمون بالتعليم ومنها أمر **الحفاظ على نمط التعليم المتوارث من غير تطور يذكر**. لكن بعض المعلمين، وبرغبة منهم، يقومون ببعض التحسينات التي قد تستهوي المتعلمين والمسئولين، **علماً بأن التحسين ليس تطورا**، لأنه يكون في أغلب الأحيان رأسياً وليس أساسياً، كما هو معروف في عمليات التطور، لكنه يتناول بعضاً من الجوانب التي قد تساعد في لم الشمل، والتحريك في الوجهة الصحيحة، مثل:

تغيير نوعية السبورات.... وكيفية استخداماتها.... وبعضٍ مما تشمله التوجيهات والإرشادات، التي ترد في طابور الصباح.... وفي تفعيل دور أولياء الأمور....

وغير ذلك، مما هو سهل، يقع في الإطار العام للتعليم.... ويباعد ما بين ذلك المهتم بأمر التعليم و تبعات المسؤولية.

إنّ مثل هذه المسالب هي التي جعلت التعليم ينأى عن التطور والمواكبة مما جعل مردود العمليات التعليمية واهياً وضعيفاً في مضمونه وفي أهدافه.

إنّ هدف العملية التعليمية الذي يدور ويجوس في خلد كل فرد منا، هو:
أن يشعر المتعلمون بمعنى وجودهم، وبذلك يمكنهم أن يدركوا من خلال هذا الهدف السامي، تلك القيمة التي يمكنهم إتاحتها للآخرين.... وكيف يمكنهم أن يدركوا أنهم أصبحوا أكثر نفعاً لهم.... وهذا يعني تمكين المتعلمين من الأخذ بالتطور الذي ننشده.... لأجل تعليم أفضل.

كغيره من النشاطات الحياتية.... فقد خطى المهتمون بالتعليم خطوة إلى الأمام، فصار معنى التعليم من منظورهم التربوي:

(هو عبارة عن عملية تغذية أو تنشئة.... قصد منها:
الإظهار والاستنباط والاستخراج).

يعني ذلك أن التعليم عملية مستمرة، كما أسلفنا ذكره، ترمي إلى استخراج الإمكانيات الكامنة في داخل الأفراد **(المتعلمين)**، والتي تتأتى عن جاهزية الفرد البشري.... وإعداده الرباني، منذ لحظة تكوينه داخل رحم أمه، لمزاولة كافة نشاطاته الحياتية.

نستخرج مما تم سرده، أنّ الفرد المتعلم هو محور العملية التعليمية....وهو الذي يسعي بقدراته الذاتية لبلوغ أهدافه في الحياة، مستخدماً في ذلك كل خبراته وإمكاناته

العقلية، والبدنية، والوجدانية، والصحية، والنفسية، وغيرها....ومن أهم تلك الأهداف الحق الذي لا ينازعه عليه أحد وهو:

(السعي إلى تحقيق سعادته الفردية....

وسعادة الآخرين من حوله).

العملاق

المسيرة من مدينة "**كازابلانكا**" التي تتكئ على ساحل **(المحيط الأطلسي)الشرقي**، إلى مدينة "**الرباط**"العاصمة السياسية للمملكة المغربية، **بالقطار**، لم تتعد الخمس والأربعين دقيقة **(ساعة إلا ربع و "بس")**، أعجبني ذلك **القطار** الذي ضمني إليه، بين أناس متدافعين بداخله، من أجل الظفر بمقعد من تلك المقاعد الوثيرة الوافرة، والتي ستسعهم جميعاً، إلا أنه وبحكم عاداتنا و"**شفقتنا**"، في عالمنا الثالث، تلزمنا "**المدافرة**" حتى ولو كنا وحيدين نتناجى و أنفسنا.

أعجبني ذلك **القطار** الذي لم ينزل بأرضه **(الهم)**، مما يدفعني أن أطلق عليه مسمى **(قطار الهم)**، فافتقدت ساعتها:

(عم الزين، والسنطور، والتابلت، والصفارة، والجرس الرنان، الذي يوحي لنا دائماً، نحن جيل القطارات، خلال أيام ماضيات، بروح الانضباط والالتزام، حيث كان يتسنى لنا أن نوجه (شوكات) ساعاتنا، أو أرقامها الالكترونية، لتستقر في مواقعها الصحيحة ليلاً كان ذلك أم نهاراً، عندما تحين ساعة تحرك القطار من محطة الانطلاق، أو عند قدومه إلى محطة الوصول، خلال كل المواسم والفصول).

ينبئ **القطار** عندنا بتداعي الأحزان، واستثارة الشجون ساعات الرحيل والفراق، فيتفق الجميع على إيقاف **(عجلاته)** عن الدوران أو حتى تمني تحطيمه! من خلال الدعوات والتضرعات إلى الله تعالى:

(يا القطار تدشدش،
الشلت محبوبي!

وهم يكيلون اللوم والسباب، في نفس الوقت، عليه... وعلى سائقه... وعماله... ومحطاته... وسرعته الزائدة... وذلك بفعلته التي قصد بها إشعال نيران الفراق، والبعاد عن ديار الإلف والوئام.

أو قد يخاطبونه بقولهم:

من بف نفسك يا القطار،
ولهيب صدرك أنا قلبي طار،
وينو الحبيب..؟

(انت شلتو...
جيبو يا القطار).

لكن وحسب ما أحسست **ف...(قطار كازا)**... "**تفسه ما حار زي حقنا**"، الذي يلهث ما بين المدارين **(مدار السرطان ومدار الجدي)**، صيفاً وشتاءً... في تفانٍ متلاحق، **(عشان كدا... أصبح بعبع للعشاق)** وبالذات عندما يودِعُون بداخل **عرباته** من يحبون.

أو كمن **يقول:**

القطر... القطر،
نويت السفر،
هيجت حبيبي....
وانا دمعي انهمر.

إنّ ما فات على الشعراء المصابين **ب...(فوبيا القطارات)**، أنهم نسوا أو تناسوا قطارات البضائع... وقطارات المحروقات... والقطار المشترك... والقطار المحلي... والقطار السريع... ومترو الأنفاق...وغيرهم من المسميات، فهناك القطارات التي تستخدم **الفحم الحجري** كوقود وتعرف بقطارات **البخار**، أو التي تستخدم **الجازولين** وتعرف بقطارات **الديزل**، والقطارات الكهربائية التي تستخدم في تحريكها الكهرباء....

(لكن الفوبيا الجد..جد.. تلك التي تنتج من قطار الزواج (البورة)... وما يخلفه من تداعيات... قد تؤدي للجنون و (البشتنة) و (الكلام الما موزون)... في بعض الحالات)

(غير أن القطارات تتساوى جميعاً في تحريك الوجدان الشعري واستثارة الآلام في نفس الوقت، وفي إحراق قلوب العاشقين من فرط المعاناة، كما أنه يعمل على توزيع الفرحة والبشاشة لقلوب البعض ...ساعات القدوم).

في جانب آخر تعلمنا من سلوك قطاراتنا في الوقت الفائت، ماهية السلوك **الإنساني والتربوي** على السواء، وكنا في ذلك كقطاراتنا **(ما بنلعب بالوقت)** بل نوليه العناية والاحترام، فكنا في **ميعادنا وفي وعدنا** لا نتجاوز ما تنص عليه اللوائح، أو ما نتقوّل به مع بعضنا، عبر ما أتيح لنا من وسائط آنذاك، ومن بينها "**ألسنتنا**".

حدثني من قال أن الأستاذ التربوي المعروف، **(هاشم ضيف الله)**، طيب الله ثراه، الذي كان في وقت سبق **(ناظراً)** لمدرسة **(حنتوب)** الثانوية الشهيرة، كان الكل في المجتمع المدرسي بمعلميه، وطلابه، وموظفيه، وعماله، يعملون على ضبط ساعاتهم عندما تتطلع أبصارهم ساعة **مقدم أو رواح** الأستاذ **(هاشم)** من وإلى المدرسة، مثلما يفعلون عند سماعهم **ل...(الرنات)** المميزة لساعة **(بق بن)** اللندنية الشهيرة، التي تتناغم كثيراً ونبضات قلوبنا عندما يحين وقت بث النشرات الإخبارية...

وهو ذات الحال عندنا **(أيام زمان)**...حينما يردد المذيع عبر إذاعة أمدرمان **الوحيدة آنذاك... (أعلنت ساعة البلدية تمام الساعة كذا...)**، فنعمد على التو لضبط ساعاتنا باستخدام ذلك **(الزمبلك)** الذي لا زال **(يعشعش)** بأذهاننا.

(لننظر نحن الآن! أين يا ترى نقف من ذلك السلوك التربوي الراحل؟).

راعني قطار **"كازا"** ،كما يحلو لأهلها أن يتنادوا بذلك الاسم المخفف، بدلاً عن **"كازابلانكا"** والتي تعرف أيضاً باسم **"الدار البيضاء"، (نسبة لما يغطي مبانيها ونفوس ساكنيها من بياض ناصع غير مشوب)** فتذكرت في أهلي:

بياض النفوس وبياض الضمائر (الزي الدبلان) و (زي الفضة و ريالاتها)... التي تبعث السرور في النفس.

و

(الزول أب سناً فضة "مالا" السلام ما برُده؟)

و كلمة **"مالا"** تعني **"مالو" أو "ماله" أو "لماذا"؟**

أما كلمة "ما بردا" ...أي **"مابرده" ...وتقرأ ب.."فتح الدال المشددة" و "إبدال الهاء ألفاً".**

و

سنك ريال جيد

دقاقا مو بليد

أنِي سايرة امنعيّد
في دار اللبيض.

و

داك براقاً قبلي
فوق عربي وفوق ابلي

يا بخيت أحلبلي
لبن أم زور طايب لي.

إنّ كلما جاء في المقاطع السالفة مشبع تماماً **ب... (البياض)**، الذي يسمو بنا فوق ما تنضح به المدن ومبانيها من **(بياض)**.

كانت "عربات قطار كازا" باردة و "مكيفة" و "مزججة" تتمتع نوافذها بالزجاج المقوي الشفاف، وهي ذات مقاعد وثيرة، تتوق في لهف لتقديم الراحة التامة لمرتاديها المتجددين دوماً، كما أنها (مبطنة) بالنفيس من كل ما يستخدم في "التبطين" كالجلد الصناعي، والأقمشة الثقيلة الزاهية بشتى أنواعها، علاوة على:

(تمديد المسافر ل .."كرعيه"،
من غير أن يخاف عليهما من:
"العفص" غير المقصود.

ومن:

"الخدر" الناتج عن الإلتواء).

أدرت عيناً قلقة في أرجاء **صالة الوصول بمدينة (الرباط)**، حيث تقافزت أمامها آيات الجمال، وتناثرت حولها عيون، ملأت بتلألئها أركان المكان وحواشيه، لما كستها بهاءً وزينة، فأصبحت كالحسناء تختال في ثوب من الدلال مسبولٍ، كثيراً ما ينزلق من على كتفين، دثرتهما بالحرير ناضرات الأزاهير النابضة حياة وحياء.

تبصرت طريقي من غير معاناة تُذكر، فقادتني خطواتي الخجولة، وهي تطأ ملس الرخام من تحتها، لتزداد زهواً وكبرياءً، فتعالت بي ثم سمت، **لاسيما وأنا ود (عز)، من وطن موسوم بكل معاني العز والفخار**، يناديني فأدنيه ويدنيني، كلما شط بي المزار، فكان لسان حالي يردد ما بين **الفينة والأخرى:**

أفديك بالروح يا موطني،
فأنت دمي.....
كل ما أقتني!
بلادي أنا.

تركت تلك **الصالة** الممشوقة من خلفي، وهي تنادي في شغف عليّ، استدعيتها فمثلت أمامي تتهادى في مشيتها الموسقة، ظلت تقودني في ألفة حميمة، حيث يمكث ذلك **(العملاق الأسطورة)**، الذي دعتني للقياه رغبتي وإرادتي، بمقاطعة **(تمارة)** عند قاعة بفندق **(ياسمينة)**، القابع على ساحل **الأطلسي.**

تخيلته لما رأيته، يترنم ويشدو قائلاً:

عـريت من الـشباب غـضاً
كما يعـرى من الورق القضيب

ونحت على الشباب بدمع عينـي
فمـا نفـع البكـاء ولا النحـيب

ألا لـيت الشباب يعـود يومـاً
فأخـبره بمـا فـعل الـمشيب

انسلخ الشباب منه فقد كان غض الإهاب، ممتشق العود ناضره، فألفيته وقد غطى الشيب هامته، وتناثرت بعض من شعيراته الهلكى، من جانبي تلك القبعة المغربية السوداء، التي يمثل طرفها العلوي الأمامي، مظلة تحمي تلك **العينين الإفريقيتين الواسعتين**، اللتين يكسوهما بريق لامع لماح، وهو كل ما تبقي من أثر لنضارة أيام الشباب الخاليات.

لا زالت العينان منه تنضحان بذكاء متقد، وتتحدثان بنظرات ثاقبة، توحي بالكثير الذي يمكن أن يثار، والذي ربما يمثل إضافة ثرة لماضي ذلك الرجل العبقري.

فهو الذي يقول: في **قصيدة (ياقوت العرش)،**

دنيا لا يملكها من يملكها،
أغنى أهليها سادتها،
الفقراء.....
الخاسر من لم يأخذ منها...
ما تعطيه،

على استحياء .....
والغافل من ظن الأشياء،
هي الأشياء .....

تقاربت رجلا العملاق الأسطورة على صعيد واحد، فصارتا أكثر التصاقاً فيما بينهما، تتلمسان قاعدة حديدية زينت تلك **الدراجة الهوائية المتواضعة**، فهي دراجة يمتلكها المقعدون إما بشرائها من حر مالهم، أو قد تكون هدية من **(فاعل خير)**. تولت قيادتها **(زوجه المغربية الأصل)**، وبجانبها صبية يافعة هي **ابنته الوحيدة** منها.

ضمرت اليدان وأضحى الجلد الذي يكسوهما هيناً و **(رهيفاً)** أي أصبح **(مكرمشاً)**، ترادفت طياته الواهنة في تتابع لا نهائي، فهو لا يقوى على التفاعل الجاد، مع ما تدفع به الطبيعة من شمس أو زمهرير، تكسوه شعيرات رقيقات متفرقات، وخطها شيب يخطؤه اللمعان الناصع، فقد اعتلاه وهن ممقوت، مما جعل تلك التيارات الخفيفة المنبعثة من **(مراوح السقف)**، تتقاذفه ذات اليمين وذات الشمال، لاسيما والساعدان يبسطان راحتيهما على جانبي الدراجة العلويين، في هدوء تام.

إن كل ما تبقى من كلمات لذلك الرجل العبقري، الذي كان قد ملأ الدنيا ضجيجاً وصخباً، إفريقياً وعربياً، لأكثر من نصف قرن من الزمان، بعض من كلمات لا زالت تتبوأ مكانتها بين مخارج الكلم، من خلال ذلك الفم الذي ما عاد ينثر الحديث الأخاذ السلس المتتابع، كلمات لا زال يجترها لتعبر عما يجيش بخلده، أو ما ينم بما تمليه وجدانياته:

(يا الله)

كان يبعث بها بقوة القادر، الذي لا يستطيع أن يضع حاشية كلامية حولها، فكان يستخدمها ما بين الفينة والأخرى، بصوت جهوري يقطع أوصال حديث المتحدثين والحاضرين، من الشعراء والمحبين للرجل ولقامته الشعرية السامقة، تأثر الحاضرون جميعاً عندما أدركوا أن كل ما تبقى من بحر الكلم لدى الرجل كلمتان لا غيرهما:

(يا الله)

ذلك إذا ما اعتبرنا **(ياء المناداة)** كلمة وليس حرفاً، إن جاز لنا ذلك، وإلا فلفظ الجلالة وحده يعني لنا الكثير مما كان يجيش بخواطر الرجل.

وهو ذاته ذاك الصوت الذي كان يجلجل طرباً في الأرجاء، يشنف آذان المستمعين المنصتين، الذين يظلون في صمتهم الضجيع، يباعدون ما بين مسامعهم ونهايات القصيد، فهم لا يرجون انقطاعه:

عن أي بلاد العالم تسألني،
يا محبوبي.....؟

عن حوت قدماه من صخر،
عيناه من ياقوت،

عن سحب من نيران.....؟
وجزائر من مرجان.....؟

عن ميت ***يحمل جثته،***
ويهرول حيث يموت.....؟

لا تعجب يا يا قوت،
الأعظم من قدر الإنسان.....
هو الإنسان!

تقدمت في سعادة غامرة يسودها التوجس، إلى حيث كان الرجل يجلس داخل عربة صغيرة **(صالون)** متواضعة، على المقعد المجاور للسائق، قرب المدخل الرئيس **للقاعة.**

عمدت إلى كفه اليسرى فأمسكت بها برفق وهي تستريح على فخذه، حيث أنها كانت أقرب إلى مزاولة الإحساس السليم مقارنة بكفه اليمنى، فتبينت رقتها بين أصابع كفي التي احتوتها بكاملها، أدركت نعومتها بما رسمته خطوط الكبر عليها، فهي ذاتها التي كستها نعومة ورقة، بمقدار ما أفرزته قوة شعره وسطوته من إبداع، فبالرغم مما انطبع عليها من تلك النعومة والرقة، كنت أحس بقوتها وصلابة معدنها.....

وأنا ساعتها **ألملم جسدي في انحناءة،** أُكمل بها ترتيب ما قد يجسد أحاسيس الاحترام والتبجيل من كلمات، **فهي التي جعلتني أكثر قرباً من ناظريه،** الذين تغلغلا عبر نظراتهما الثاقبة، في متاهات وجهي، متسائلة وتواقة لمعرفة مصدر هذه **الحميمية، والانتماء، والإعجاب،** من شخص لم تشهداه من قبل، لكنه **(سوداني) بالميلاد.**

لم أكلف الرجل كبير معاناة فسارعت قائلاً:

(أنا فلان ....السوداني،
أحد أساتذة جامعة أمدرمان الإسلامية).

هنا!... صاح الرجل في قوة، لفتت كل أنظار الحاضرين من حولنا، فرمقتني ومن أناجي في لحظة واحدة، و بنظرة استفسار متداعية! هتف قائلاً:

(يا الله)

لا تزال نظراته تغوص في دواخلي، تفتت ما علق بها من معانٍ مبعثرة، فدلفت إلى تجميعها وترتيبها، وقمت على سبل الدثار عليها، بكلمات علها تفي بما يجوس في أغوار نفسي التائهة، فهي شتات مما قد يليق بمقام الرجل الذي نضد ساحات العروبة، و متاهات إفريقيا النابضة، **بسحر الكلم، وألق النظم، ومنثور الحديث.**
فكأني به يقول:

لن تبصرنا بمآقٍ غير مآقينا،
لن تعرفنا.....
ما لم نجذبك،
فتعرفنا.....

أدنى ما فينا،
قد يعلونا،
يا ياقوت!

فكن الأدنى،
تكن الأعلى فينا.

وتجف مياه البحر....
وتقطع هجرتها أسراب الطير،
والغربال المثقوب على كتفيك.

وحزنك في عينيك.....
جبال،
ومقادير،
وأجيال،
يا محبوبي.

لا تُبكيني!
يكفيك ويكفيني،
فالحزن الأكبر ..... ليس يقال.

كان ينصت بكل ما تحويه **(مسامعه)** من أدوات الفهم المهيأة بأكملها، لما ستلتقطه وتستوعبه من ذلك الشتات، فتحاشيت أن أبكيه.... وتجرعت في ألم ما طرق أذن مخيلتي من كلمات لا زالت **تدور..... وتدور..... فتقذفني.... وتجمعني.....** **وأنا في شغلٍ، ألملم بعضاً من شتات الذكريات المضنيات الباكيات:**

(لا تبكيني! يكفيك ويكفيني! فالحزن الأكبر..... ليس يقال).

فتمنيت له:

(طول العمر، ودوام العافية، والسعادة)

لقد سرقت تلك اللحظات على مرأى من كل الحاضرين، رغم ما نبا إلى سمعي من تحذيرات تقف حداً مانعاً للاقتراب، من حيث يجلس **ذلك الطود الشامخ الأشم،** في معزل عن الآخرين.

فككت يده... وإن كنت لا أنوي ذلك، وقد تحدرت من تحت جفني، مجموعات من قطرات ماء مالحة، سالت متدحرجة إلى الأسفل، من غير استئذان.

لمست دفئها داخل أوصالي الممزقة، أما طعمها فلا زال يراودني مذاقه، كلما هاجت بي الذكرى **(وحشرتني)** في ثنايا تلك اللحظات الباقيات أبداً..

تراجعت القهقرى...
في خطوات غير مرئية،
تاركاً أمامي عينين! لا زالتا تحلقان حولي،
تجوسان بداخلي...
في اهتمام بالغ....
(بحسب ظني)!

كان ذلك اللقاء بمثابة تكريم لذلك الرجل، **من قبل و صنيع (اتحاد الكتاب المغاربة)**، أمّه جمع كبير من أهل الثقافة بالمغرب، من بينهم **الكتاب، والشعراء، والأدباء، والمتحدثين من ذوي الثقافة والمعرفة اللغوية.**

انكفأ الجميع ينقبون، وينثرون ما طاب لهم من حديث، انصب جله في سيرة ذلك العملاق المكرم، و في أدبه، وشعره، ومعينه الذي لا ينضب.

تتابعت فقرات التكريم، الواحدة تلو الأخرى، في تناسق ملفت، شارف نهايته بعد أكثر من أربع ساعات متواليات ومتتاليات، زانت ليل **مدينة الرباط المغربية** المتفرد الآسر، حيث لا يفصل بينها إلا كل ما هو جميل منظوم، مما انبعث من كلمات، كثيراً ما عبرت عما يجيش بداخل **الرجل** من مشاعر وأحاسيس مرهفة، **مثل:**

(برافو)

و

(آآآآآه....آآآه....آآه)

تداعت عليه مختلف أنواع التكريمات العينية، من أوسمة جملت كتفيه، ومن شهادات تقديرية، و(ملفوفات) متنوعة، إلى غير ذلك من الهدايا، والأنواط، التي تزينت بالرجل وازدهت.

سعى بي حظي إلى مجالسة ذلك الأسطورة جنباً إلى جنب، ومن قبيل الصدفة فقد تشابه ما كنا نرتدي من ملابس **حتى القبعة المغربية والبدلة،** ومما أسعدني كثيراً تولي كاميرات التصوير، أمر توثيق تلك اللحظات التي قلما يجود الزمان بمثلها.

تلاقت عيوننا، وتداخلت نظراتنا، فتحدثت إلى نفسي، وحدثني سراً يردد في مسمعي، من غير صوت يعلو، بل كان إلهامياً بحتاً، أخذ موقعه في نفسي القلقة وشدا **قائلاً:**

ما بيدي أن أرفعك.....
ولا بها أن أضعك،

أنت أليم.....
وأنا أحمل آلامي معك،

وجائع،
ومهجتي جوّعها من جوّعك،

وأنت عارٍ،
وأنا... ها أنذا،
عار معك....
ما أضيعني وأضيعك،

ما أضيع الثدي الذي أرضعني،
وأرضعك،
يا ليته جرعني سمومه،
وجرعك.....

فما احتقرت أدمعي،
ولا احتضنت أدمعك،

ولا انكفأت فوق قبر اليأس،
أبكي مصرعك..

غير أن نفسي أبكتني وبكت معي، فآثرت البقاء إلى جانبه، **لكنها النهاية!**

فقد حانت **ساعة الرحيل**، وهاجني ما خلف بين جوانحي **من (وجع دفين)**، استطاع أن يدفع بي نحو **الدراجة** التي احتوت ما تبقى من جسد ذلك **الرجل العملاق.**

رافقت تلك الدراجة، التي ألفت شاعرنا المكرم وألفها، حيث ساقته متعاونة في ذلك برفيقة دربه **(الصالحة)**، إلى حيث تتوقف تلك العربة الصغيرة **(الصالون)**، المتلهفة لاحتوائه، وهنا تم تحويله برفق إلى داخلها، وهو يتطلع على الحاضرين من المودعين، مستخدماً تلك **العينين اللامعتين البارقتين**، اللتان تتحدثان في سلاسة جزلة، إنابة عن أدوات الكلام، التي تتحدث في صمت وكأنّي بها **تقول:**

إذا كان الكلام من فضة

فالصمت من ذهب.

ملوحاً بكلتا يديا مودعاً ولسان حالي يقول:

وداعاً أيها المبدع، وإلى لقاء قريب يا....

(" فيتوري")

السجينة

لم تمانع أو تتمنع، حينما بسطت لها يدي اليمنى في رفق صادق، فضممتها بكل ما يحويه ذلك الرفق، تماديت في قبضتي التي زادت قوة وصلابة، فصرت أهصرها بعنف مقصود، لكنها ورغم ذلك الهصر الذي قد يكون موجعاً، لم تتوجع ولم تشتكِ، بل خضعت راضية مختارة، فتلمست لها موقعاً بين أصابع، تمادت في احتوائها، بقدر ما تميزت به من قوة، تجعل من هذا السلوك حائلاً ومانعاً حصيناً، كي لا **(تنفلت) أو (تنزلق)** بعيداً.

أجلستها بجانبي الأيسر حول **(منضدة)** صغيرة ملساء، إذ أنه كان يزين سطحها رخام أبيض يانع، فهي... **أعني (المنضدة)**، لا تتسع دائرتها لأكثر من شخصين للجلوس حولها، وبالذات.... من ذلك النوع **(الجوز)** الذي يتمتع برباط وجداني واثب، كما لا تتسع دائرتها تلك، لبسط أكثر من أربعة أكف **(وليفة)**، إلى جانب كأسين من مزيج **(عصير)** الفاكهة **(المشكّل)**، أو لكوبين من الشاي **(بالحليب)**.

تزين تلك الجلسة الوديعة، ثريات زاهيات تم إعدادها وتوزيعها و **(بعثرتها)** هنا وهناك، بعناية فائقة، تطل من مواقعها على شارع أسفلتي أنيق واسع، لا يسمح أي موقع فيه **ل...(دحرجة)** عجلات السيارات، أو أزيز الماكينات مهما كان نوعها.

كنا نتسامر ونحلق من خلال لحظات هادئات و هيِّنات... تائهات، تمددت بنا ما بين المغيب ووقت **العشاء** (بكسر العين)، وليس **العشاء** بفتحها، **ف...(تناول الطعام دائماً يفسد نهم الخواطر والإمتاع)**.

تتسامق على جانبي الشارع بنايات متشابهات **بيضاء اللون**، متراصة في نظم بديع، تكسو المكان ألقاً ونضارة، تحوي مجمعات تجارية ذات أغراض متعددة، من

بينها تلك **المقاهي و (الكافيتريات)** المزينة بكل ما هو جميل. ومما أضفى على المكان جمالاً وبهاءً، تلك الجماعات المسرعة المسارعة الخطوات، التي زحمت الساحة في مجيئها وذهابها، وهم يمثلون خلطة اجتماعية شملت الكبار والصغار، من الرجال والنساء، ومن الشباب النشط الأنيق، الذي لا يبخل بإهداء كفه أو ذراعه لرفيقه، بالطريقة التي تتماشى مع نوع وجنس ذلك الرفيق.

خفت عليها من الانفلات المتوقع، الذي قد يباعد فيما بيني وبينها، ويفسد كل ما منحتنا إياه تلك الجلسة الاستثنائية، ففردت كسائي الذي أرتدي **(البدلة)**، وتسلقت أصابعي إلى **(جيب)** قميصي الدافئ وحشرتها هناك، في ذلك المكان الذي يجاور مركز تلك النبضات، التي تنبعث من قلب لا زال يخفق...

لم تبدِ امتعاضاً أو تمنعاً، ووضعتُ كف يدي من فوقها أتحسس بأصابعي الولهة، تلك الثغرات التي أطلت من منافذ **(الجيب)** العليا، فأتمكن من إحكام إغلاقها وأساعد في تقريب المسافة ما بينها وبين مركز النبض، الذي باتت خفقاته في ازدياد مضطرد.

طوفت بي، وهي قابعة في سجنها أو محبسها الدافئ، بعيداً... في ربوع **كردفان** الحبيبة، وحاضرتها **(الأبيض)**، كما جذبتني سريعاً إلى حيث تنام **(ربوع شندي)** الغارقة في الجمال، على الشاطئ الشرقي لنيلنا الحبيب.

لم تدعني أتجول كثيراً بين تلك الربوع، فدفعت بي في قوة لطيفة، وباقتدار لا يدع للمرء فرصة التروي، أو التأبي، أو التمنع، فألفيت نفسي ماشياً (أتلفت) في أزقة (أم درمان)، حيث تجتمع، وتتوحد، وتتواصل... كل أعراق بلادي.

غرقت وأنا تائه، في خضم ذلك التنقل، رقيق القوام المستلطف، مرة ومرات....فأُسرت تماماً ولم يتبق لدي سوى الاستسلام، يعني **رفعت العلم الأبيض**

(البيرق)، ملوحاً ذات اليمين وذات اليسار، في إيقاع غير منتظم، فصرت ساعتها، أسعد من أكون، لاسيما وقد تلملم من فوقي سحاب كثيف ساكن، كسا المكان ظلاً ليلياً هادئاً، يوحي لأمثالي بالارتياح والطمأنينة، فحنا علي وضمني، وهو **لا يدري! كما أدري أنا**....أن هنالك داخل أضلعي، تتربع **رفيقتي السجينة**، في متاهات تلك الأضلع الواهنة، في دعة وأمان منقطع النظير.

عمني كما غشا غيري في هذا المساء الطيب، رزاز هين رهيف تناثر على كتفي برفق وحنين زائد، لا يحمل **(زيفة)** ولا زمهريراً ولا **(كتاحة)**، أشبه ما يكون **ب... (بخة المكوجي).... عبد المولى....** أيام زمان.

بينما أنا **(أتمرغ)** أو **(أتمرمغ)** في وسط هذا الجمال، أخذت تترنم، يدعمها ذلك الصوت الشجي الممراح، من داخل سجنها الذي حلقت فيه وفي خارجه، عبر ما فاض بي من وجد ومن لطافة، أخالها أشبعت الكون بأجمعه، من سحر المعاني وعذوبة اللحن، كانت الكلمات تأتي **منبعثة قائلة:**

لحن الحياة منك،
وما تقول نسينا الماضي،
وصرنا ناسينك،
محبوبي الجميل.

سألوني مين اسمك؟
عرفتهم،
أيه الصفات عنك؟
أخبرتهم،
شافوا الجمال منك؟
أقنعتهم،

طولت لكنك،
أنا يا حبيب الروح أعفيني....
من ظنك.

اختلط عندي... في غربتي تلك... ما صاغه (ود القرشي) من كلمات، وما ترنم به عثمان الشفيع من لحن، وما جادت به تلك المغنية من سحر النغم، والتي رافقتني في ليلتي تلك.

تدافعت وتدفقت تلك الكلمات، عبر جهاز **هاتفي الجوال**، وأنا أجلس تلك الجلسة الطيبة، التي تحمل من المشاعر ما تحمل.... على كرسي صنع من **(الخيزران)**، ذي النسج الأنيق المنظوم، على الجانب الأيمن من **شارع الملك محمد الخامس، بمدينة كازابلانكا (الدار البيضاء)** في **المملكة المغربية.**

من فيض ما حرك أشجاني، تركت المجال للسحائب كي تنضح بماء يتقاطر من بين ثناياها، كدمعات فاترة رقيقة.... غمرتني وشملتني **ب...(البلل)** المحبب، وأنا أتلمس طريقي بين تلك البنايات المستسلمة الوادعة، إلى حيث يقبع فندق **(ريو)**، صاحبني ذلك **(البلل)**، وشفاني مما طالني من **(إبلال)**، طيلة عشيتي ومنامي تلك الليلة.

لم يتعد الهصر على كتفي مرافقتي تلك.... إلا الضم بقوة، وذلك بوضع كفي اليمنى، مستمتعاً ومتلمساً لجهاز هاتفي الجوال، الذي ارتمى داخل جيب قميصي تلك الليلة، خوفاً عليه من سطوة (النشالين) والمتسولين، وهو يترنم... مردداً ذلك المقطع الغنائي، الذي أضحى عندي نشيداً وطنياً... كم ربت على كتفي مهدهداً ومواسياً لي... في غربتي تلك.

الغرفة (207)

تحددت وجهتي إلى حيث تتربع الغرفة رقم **(207)** في الطابق العلوي من المبنى، المعروف **ب...(فندق زيلس ZELIS)**، وهي في كامل عنفوانها... وكامل حسنها، الذي زانته محتوياتها من الأثاث **(المنقّى)**، الأنيق المتجانس الألوان والأشكال، ومن خيرة الأنواع، التي تم اختيارها بعناية فائقة، ذاك الذي **(رصّه)** ونظّمه المهتمون بأمرها، إلى جانب ما احتوته من لوحات حائطية أبدع الرسامون في تجسيدها، فأخذت تتضح بجمال أخّاذ آسر.

يتوسط الغرفة سرير كبير **(دبل بيد)**، تم فرشه بخبرة ودراية تامة، يتقاسم الغرفة مع خزانة ملابس خشبية **(دولاب)**، وجهاز **(تلفاز)**، و **(شمعدان)**، و **(كومودينو)**، و **(تواليت، بمرآة زجاجية كبيرة)**، إلى جانب تلك الستائر التي كست حيطان الغرفة، فأضافت لها بعداً جمالياً آخر.

يقود مدخل الغرفة إلى صالة صغيرة، ارتمت بين أركانها أريكتا جلوس **(كرسيان)**، تتوسطهما منضدة صغيرة، تتيح للجالس عندها فرصة في أن يتجول ببصره في خارجها، عبر شرفات لا عيب فيها سوى أنها ساحرة أخّاذة، هناك في الخارج حيث الوداعة والهدوء، وحيث تفترق... وتتحد تلك الطرقات الإسفلتية، التي تتلوى كما **الأفعى**، ما بين تلك البنايات، ذات الطراز العربي القديم، الذي ساد وانتشر في كثير من **قرى ومدن البلاد الإسلامية...**

فقد شاهدت مثل تلك الطرقات في مكة المكرمة، وفي المدينة المنورة، وفي جدة عروس البحر الأحمر، وفي دمشق أقدم مدينة في العالم، وفي الدار البيضاء زهرة الأطلسي، وفي طنجة بوابة الشمال، وفي فاس (ألما وراها ناس)، وفي

صنعاء اليمن، وفي بريده حاضرة القصيم، وفي مدن وقرى كثيرة، ومواقع متعددة مترامية، ساقتني أقداري إليها، توحي للناظر المتدبر أنها طراز يختص بالنمط العربي و الإسلامي فقط. وهو ما لم أشهده في غيرها من بلدان العالم التي زرتها.

تتفاوت البنايات، التي تخللتها تلك الطرقات أو **(الدروب)**، كما تسمى لدينا في **السودان**، وكنا نضرب بها الأمثال **(زي المثل)** الذي **يقول:**

(درب السلامة للحول قريب)

ويعني ذلك:

أنّ سلامة الوصول إلى نقطة ما.... هي الأهم... مهما كان (الدرب) الموصل إليها بعيداً.

و

(مسّاك دربين ضهّاب).

والضهاب هو:

ذلك الشخص كثير التوهان، الذي كثيراً ما يضل طريقه. وهو يتشابه و (صاحب البالين)، الذي يقول المثل فيه:

(صاحب بالين كضاب).

وفي إسداء النصائح:

(أمسك دربك عديل)

وهو نوع من التحذير... أو قد يكون التهديد، الذي ربما يتبعه فعل غير محمود، من الطرف المحذر.

وقد وردت كلمة **(الدرب)** في الأغاني السودانية **زي:**

(دربي أصبح... ماهو دربك).

و

(معاي ...معاي... في الدرب الطويل).

واستخدم **(الدرب)** في **الفزورات (الغلوتيات) مثل:**

(عمّي طويل ما بلحق الكعكول).

(الكعكُول) "بفتح الكاف الأولى وضم الثانية" هو قطعة الصمغ التي تحملها فروع أو فريعات شجرة **(الهشاب) الشوكية، التي تنتج الصمغ العربي المعروف.** أما **(الدرب) الطويل،** الذي كني **ب...(عمّي)،** فهو يتمدد أفقياً... ولا يمكن استخدامه للحصول على ذلك **(الكعكول)،** مثلما يستخدم **السلم** كوسيلة...**عند الرغبة لصعود المواقع المرتفعة رأسياً.**

تتفاوت بنايات **(أصيلة)** في ارتفاعاتها، فهي ما بين طابق وطابقين، أغلبها شيد من اللبن **(الجالوص)** الفاخر، الذي غطي بالأسمنت، مما جعله يبدو أكثر صلابة وأناقة... **(يعني بقى أملس ونضيف)**...بينما تتعالى بعض البنايات الحديثة التي شيدت مؤخراً، على الطراز المعماري الحديث، والتي تميزت بالطرقات الواسعة

المشجرة، والمزهرة التي لا تتشابه وتلك **الدروب (الملولوة)**، (بتسكين الواو الأولى وفتح الثانية)، فهي طرقات تزينت بشتى أنواع وألوان الزهور... والنباتات الخضراء غير المزهرة، والشجيرات الصغيرة التي تنتظم المسافات ما بين تلك الطرقات.

توطد فينا الاهتمام **ب...(الدرب)** حتى صرنا نطلقه على بعضنا، **كتسمية أو كنية**، بدل الاسم الحقيقي، **وكمان في صيغة التصغير المحبب مثل:**

(الدريب)

وهو اسم جميل سهل النطق، يحمل من **الحنية والرقة واللطافة** ما يحمل، ويوحي بأهمية **(الدرب)** لدينا، خاصة في أوقات الخريف، عندما يصبح **(الدرب)** أمراً حتمياً، وذلك حينما كانت تتمدد في أوساط ديارنا، **(دروب) كثيرة متداخلة ومتعرجة،** جراء كثافة الشجيرات والحشائش، عندما كان للخضرة استحباباتها، ومقاماتها السامية لدى أهلي هناك، حيث يتوالى انسكاب الماء علينا، من النيل ومن السماء... في تواؤم متجانس متفرد...مما خلف لدينا بعض المساحات المائية المتعددة... **ومن أشهرها:**

(ميعة البجا)

التي تغطي معظم المساحة، التي تشغلها **(تروس أولاد ود الشيخ أحمد)**... التي أصبحت منطقة سكنية في السنوات الأخيرة .... وهي التي تربط **الحلة القديمة** مع **الحلة الجديدة.**

ونحن نتابع الدروب ما بين:

الرقّاش... والفودة..

والُلقد، وقوز النقارة..

والكدسة. والفاسد.

ومشروع التجاني.. والنقال....

ومشروع حاج أحمد.. ومشروع ود الحسن....

وغيرها من المواقع....

مثل: (شدرة) ود عرور و التومات.

أما (شدرة) (ود قريضة)، فكان دربها محلي...تعترضه بعض (زرايب الشوك)، المنتشرة في الحلة آنذاك.....

أخي وأستاذي/ الرفاعي المأمون (ود علي الشايقي)، لقد أعجبتني تلك **(الكنية)** التي أشرت إليها أيّما إعجاب**!**

فهل يا ترى تجد الاستحسان لديكم؟
ولدى إخوتي من أولاد عمنا (الدريب)؟

من أشهر **(الدروب)** عندنا... هو **(درب النمل)**، الذي تم رسمه وتعبيده بتقنية عالية، تعاون فيها أفراد النمل جميعاً، فهي تسمح لكل أفراد المملكة بالتحرك، **جيئة وذهاباً**، محملين أو غير محملين بالمواد الغذائية والأوشاب وغيرها من متطلبات الحياة، في سهولة ويسر، ومن غير عوائق تذكر....

وعلى ذكر النمل ودروبه، جاء في القصص المدرسي في العقود الفائتة، **بمرحلة التعليم الأولي**، أن أحد **السلاطين** عرض جائزة لمن يحكى له قصة بلا نهاية... ومن لا يحالفه الحظ من المتقدمين، وينجح في تلك المهمة... فسوف يكون مصيره الموت لا محالة....

(تقدم كثير من الحكاة بقصصهم، ففشلوا ... وماتوا)!

لكن أحدهم انبرى للأمر وبدأ يحكي **قصته التي تقول:**

إنّ مملكة من ممالك **النمل**... اكتشفت أحد مخازن **الذرة** في موقع ما، وبدأت على التو في نقل الحبوب إلى خارجه، متوجهة بها إلى أجحارها، حيث أقام بيوته المحمية تماماً، واستمر يروي... ويروي، إلى أن وصل به **القول:**

دخلت نملة وأخذت حبة وخرجت...
ثم دخلت نملة وأخذت حبه وخرجت.

ودخلت نملة وأخذت حبة وخرجت...
ثم دخلت نملة وأخذت حبة وخرجت.

وهكذا استمر في تكرار العبارة حتى سئم **السلطان**، فاستحثه على الوصول للنهاية لكن الحاكي بادره:

(إنّ النمل كثير يامولاي! والذرة أكثرمنه عدداً...!
فأرجو الصبر عليّ... حتى أُكمل ما نقله النمل من حبات الذرة)!

استمر **(الحكي)** وتتابع عبارات القصة المكررة، إلى أن سئم **السلطان** ودب النعاس إلى عينيه...فاحتار في أمره.

(لكني قطعاً... لا أجزم إن كان الحاكي قد تسلم الجائزة...
أم تسلم روحه عزرائيل جراء فعلته تلك)؟

ولنا مع الدروب عودة... فهناك **أيضاً (درب الأربعين)** الشهير في غرب **السودان،** وهو من الطرق البرية التي كانت معبراً تجارياً هاماً، في حقبة من الحقب الماضية، والذي يعتبر الرابط الرئيس... بين المناطق المتعددة داخل الوطن، وبين بعض الدول المجاورة.

ومن مشاهير رجالات الدين، **وكرماء القوم...من أطلق عليه:**

(عوج الدرب)

وتأتي هذه التسمية... في غالب الأحيان، من مفارقة المسافرين لمساراتهم وتنقلاتهم، عبر **(الدروب)** الرئيسة التي اعتادوها، من أجل الاستراحة والاستجمام... مما خلفته وعثاء السفر لديهم.... فقصدوا أن يكونوا أضيافاً، في دار ذلك **الشيخ الكريم**... حيث الحفاوة وحسن الضيافة، بما يتخللها من مأكل.. ومشرب.. ومنام، فأصبحت **كنية** ذلك الرجل الكريم...

(عوج الدرب)

أي أنه استطاع تعديل مسار **(الدرب)**، بما توافر لديه من خصال حميدة، وكرم فياض، آناء إيوائه لأولئك العابرين من الركبان.

أما **(اللعوج)** فهو المكان الذي يتربع في المسافة ما بين **ديارنا والخرطوم**، وكثيراً ما يتساءل الركاب داخل المركبات السفرية (الباصات أو"الباظات" كما يروق للبعض نطقها، أو الحافلات بأنواعها)...ويقولون:

(يا جماعة... وصلنا "اللعوج" ولا لسه؟)

كان السؤال تقليدياً، وكان مبعثه الخوف ولا غيره، عند المرور بتلك البقعة من الأرض... لكثرة ما حدث فيها من حوادث مرورية متفاوتة... أدت إلى إزهاق أرواح كثير من الكبار والصغار.

لقد زعم البعض أن هناك **(شيطاناً)** يسكن في ذلك الموقع...يتمثل ويتشكل، في كثيرٍ من الأحيان، بالدواب... **كالحمير والجمال** وغيرها، مما يجعل سائق المركبة **(يلاوز)**، مما يدفعه للسقوط ومن معه في الفخ، حيث تتأرجح المركبة ذات اليمين وذات الشمال وتصبح عملية وزنها **(استعدالها)** من أكبر المستحيلات....

يصبح الموت بذلك من النتائج الحتمية لبعض **(الركاب)**، أما **(الكسور)** و**(الظليت)** و**(الخربشة)** و**(الرديخ)**... فتعتبر من المصائب الخفيفة، التي تستبدل فيها عبارة **(الفاتحة)** المدعومة برفع الكفين إلى أعلى، بعبارة **(حمد اللا على السلامة)**...

أما بن خالي الخيّر الشهيد (عبد القادر عوض الله) الشهير ب..(الضريس)، فلم يقدر لنا الله سبحانه وتعالى...ذلك الاستبدال... بل قرأنا على روحه الطاهرة (الفاتحة) كلها، باكين وضارعين بذلك، لرحمة من الله عليه، وداعين لحسن قبوله عنده.

ذكرني **(اللعوج)** عندنا **ب...(أعوج يورتسودان)**، المتمثل في **(العقبة)** تلك التي تنطق (بتخفيف القاف)، والتي أودت بروح أخينا الشاب...**(الطيب ود المقدم حسن ود المادح)** الملقب **ب...(أريل)**، عندما أصاب السيارة التي يستقلها وثلاثة من زملائه، ذلك الخلل المتعلق بالكوابح **(الفرامل)**، الذي أدى إلى انشطارها نصفين، من هول الاصطدام بالصخور التي تحف الطريق من الجانبين، علاوة على الانحدار الذي يقود سريعاً إلى قاع الوادي، فخلف:

(الموت... والكسور... والظليت... والرديخ) فيهم جميعاً.

هممت بالنزول من الغرفة رقم **(207)** التي كتب على بابها بخط جميل... مقروء من على البعد....

(غرفة الأديب والروائي العالمي الطيب صالح)

انزلقت إلى الأسفل، وقادني من طوّف بي بين تلك البنايات، عبر تلك **(الدروب)** الإسفلتية الملتوية، التي جعلت من مدينة **(أصيلة)** المغربية، نمطاً وطرازاً أدبياً حياً، ذلك لأني كنت أتلمس آثار أقدام ذلك **الأديب والروائي الفذ**، الذي اعتاد أن يتجول هناك، ما بين الفينة والأخرى، من موقع لآخر في **تواضع العلماء الجم**... منقطع النظير، كما أشار مرافقي المغربي.....والذي قال لي:

(إنّ الطيب رجل طيّب... فهو اسم على مسمى!).

كان **الطيب** يتناجى وخطواته... ماراً أمام تلك **الحديقة**، اليانعة المتزينة بألوان الزهور... المتفاوتة في جمالها.. ونسقها.. وتدافعها.. مشرئبة عالقة بتلك النسمات الباردات، المشبعة من ذلك الرزاز الخفيف.. المتقاطر.. في تداعٍ لطيف، هي ذاتها **الحديقة** التي سميت.. بعد رحيل **الأديب والروائي العالمي ب...**

(حديقة الطيب صالح)

ما أوفاكم يا مغاربة! وما أصدقكم فيما تكنونه وتدخرونه! من نبض إنساني.. وارفة ظلاله.. وندية أياديه الصديقة.. الصادقة!

تستلقي مدينة **(أصيلة)** الوادعة، متوسدة ما جمُل من روعة الساحل الشرقي ل...**(الأطلسي)**، الذي كساها جمالاً.. وصفاءً.. وبريقاً، جعلني أردد وأقول **لنفسي:**

(ياربي دي "كرمه كول" ثانية ولا شنو؟
جالوص و خُدرة و موية؟)

استناداً على ما التقطته من معلومات، تناثرت أمامي من أفواه الرواة، من منسوبي فندق **(زيلس)**، ومن أصدقاء الأديب اللصيقين به، أن ازدهار المدينة وتحولها من قرية كان يقطنها حوالي (17000) شخص، إلى مدينة متحضرة أصبح عدد ساكنيها في العام 2012م ما تراوح أكثر من(35000) نسمة، كان للأديب والروائي **(الطيب صالح)** اليد الطولى، حيث أنه استثار معارفه من أصحاب القرار بإنشاء **ما سمي:**

(مركز الحسن الثاني للملتقيات الدولية)

الذي أصبح منبراً لإقامة المهرجان السنوي، الذي يجتمع فيه الأدباء العرب، من شتى البقاع العربية ومن بينهم **(الطيب صالح)**.

شيّد المركز على طراز حضاري مغربي، بديع... مزانٍ بكل ما توافر من الزخرف، والنقوش، والمقومات الجمالية المتنوعة، فهو يحتوي على قاعات واسعة، تتسع للأعداد المهولة من الوافدين للمركز أيام إقامة المهرجان، إلى جانب الصالات المتعددة، والمعارض الثقافية... والتراثية، ومكاتب الوحدات الإدارية، وغير ذلك من المرافق الهامة المتعلقة بماهية المركز.

ما بين **الساحل**... وزوايا وأركان بنايات **السوق**.. القروي الصغير، **وقهوة (القصبة)**، حيث تسنى لي تناول كوبٍ دافئٍ من الشاي المغربي.... كانت تقودني قدماي، مسترشداً بما تركه **الأديب الكبير**... من أثر لأقدامه **(غير ظاهرٍ)** على تلك **(الدروب)**، فلعل القدر يسوق أقدامي الحيرى، فتلمس موضعاً من أثر **(غير ظاهرٍ)** لأقدام **أديبنا الراحل**...

فاستوحيت عندها قول **(السيّاب)**:

وقبلت حتى البهم....
لما رأيتها،
تقبل تلك البهم....
قبلة ثائر،

فقد أهتدي....
في قبلة إثر قبلة،
على أثر من ثغرها....
غير ظاهر.

شوهد ذلك عندما كان يرعى غنمه برفقة بعض من الفتيات الصغار، والذي لم يتجرأ وتسعفه شجاعته، أن يجالسهن نسبة لحيائه الذي بلغ به حد الانطواء، أبعده عن النساء... بعد أن فقد آخرهن... وهي أمه وهو لا يزال طفلاً....

أماه ليتك لم تغيبي...
خلف سور من حجار،

لا باب فيه لكي أدق...
ولا نوافذ في الجدار.

كان **(السيّاب)** يعمد بعد مغادرة **الفتيات** من الرعاة، إلى إحدى ألبهم **(سخيلة)**، من تلك التي كانت تداعبها إحداهن...وتطبع على جسدها بعضاً من القبلات...**وينشأ يشبعها تقبيلاً**... باحثاً عما يكون قد انطبع من أثر.. **غير ظاهر**.. لثغر الفتاة، جراء تقبيلها تلك **(السخيلة)**.

فقد أقتدي في قبلة إثر قبلة....
على أثر من ثغرها غير ظاهر.

قادتني آثار أقدام **(الطيب صالح)** إلى الساحل... حيث تيارات لطيفة، من هواء بارد.. كاد أن يطيح **ب...(طاقيتي) المغربية**، التي ألفتُها منذ أن رأيتها تعتلي هامة **الرجل العملاق...**

امتد البحر أمامي إلى ما لا نهاية...! حيث موقع انحسار البصر، تتكسر أمواجه من أمامي.. فيشتعل سطح مائه **شيباً**... لما يخلّفه من **زبد** و **(رغوة)**... والذي يزداد سواده عمقاً، كلما تطاول النظر إلى المنتأى والتباعد، **حيث ينغمس طرف السماء في ماء المحيط.. الذي أصبح داكناً متمادياً في السواد.**

لقد لمست وعرفت في تلك اللحظات كم كان **(الطيب صالح)** محقاً... في تردده على **(أصيلة)** وربوعها، التي مكنته من مناجاة ذاته بروية وعمق مستحبين.

لقد شعرت ساعتها... وأنا أُهوِّم بناظري... في تلك المساحات **المائية المتمددة** أنّ :

(جسمي خف...).

و

(استراحت أوصالي).

و

(فارقتني همومي).

و

(كأني ولدت من جديد)

وبمعنى آخر:

"RELAXED"

اكتفيت بأنّ **أصيلة (المدينة)** هي **(أصيلة الملهمة)**...وباعثة الأمل في الذات... وهي التي أضافت لي الكثير، مما لم يرد بخلدي من قبل، فهي **تجمَّع من:**

(أرضٍ..
و سماءٍ..

وماءٍ..
وهواءٍ..

وأناسٍ..
أوفياء..)

إنه تجمَّع "يرد الروح....ويطيب الخاطر".

الطلل الباكي

(ختفت رجلي من **(أصيلة)**... إلى حيث يقبع ذلك **الطلل**....

و**(ختف)** الرجل هو **خطفها**... وهو كناية عن اتخاذ القرار الفوري الذي يتبعه التنفيذ المباشر، تتفاوت المسافات التي **(تُختف)** لها الرجل، فقد تكون إلى القريب المجاور أو إلى البعيد النائي أو إلى غير ذلك.

تم (ختفي) لرجلي... من "**أصيلة المغربية**" على ساحل **المحيط الأطلسي**... إلى "**كرمكول**" على **شاطئ النيل... (عند المنحنى) أو (الليّة)**، أو **التنية**، في أرض الشمال السوداني، حيث تشابهت الأشياء بين الموضعين، وتماثلت في كثير من صفاتها وصورها ومعانيها، مما دعاني **ل...(ختف)** رجلي سالف الذكر.

هنا حيث... تتسامي إلى العلياء **(دومة ود حامد)**، وترقد بين تلك الأطلال الثملة، ذاكرة ضمخها **(الزين)**، بما يرويه عنه بقايا الأهل... الغارقين في خضم ما تدفع به نشاطات حياتهم...

من هدوء يسري بين جوانحهم سراً... واختلاساً، وسكينة قروية شكلت ذلك الوجدان الإنساني... وافر الإحساس.....

بين أولئك **البسطاء!** الذين طالما تعشّقوا امتطاء تلك **(الدروب)** الصغيرة، المتسربلة متخللة تلك المنازل... والبيوت المشتتة المتناثرة، التي تحاكي خيوط **عنكبوت** متمرس مقتدر، تلك التي تم نسجها بعناية فائقة... فهي تُستل من بين تلك **الحظائر** الملحقة بمساكن القرية، **التي تأوي بعضاً من (الغنيمات أو السخيلات أو العتان) أو الحمير وغيرها من الحيوانات الأليفة)**... في انديا‌ح متواصل، صوب **منحنى النيل** الخالد، وهي تمضي في تعرجاتها والتواءاتها المتقاطعة، من خلال

أشجار وشجيرات وحشائش... كساها اخضرار فاتن، وسعت الراجلين والركبان، من مستخدمي الدواب **ك...(الحمير)**، المحملة بما تسنى حمله... مما أهدته لهم أرض **الشواطئ و(الجروف)** من خيرات، ومما تم غرسه أو زراعته مسبقاً، أو مما زخرت به من نباتات **قامت (بروس)**، إلى جانب مجاميعٍ من الراكضين والمسارعين، وغيرهم من أولئك الذين أصابهم الجهد والنصب، جراء نشاطهم الزراعي المتواصل.

قادتني الدروب...هنا...إلى النيل،
وهناك... قادتني إلى الأطلسي...
فما أشبه الليلة بالبارحة.

بعثرتُ خطايا هنا وهناك، تارة أكبو... وتارة أتعثر... وأخرى تنغمس قدماي في **وحل من التراب الرملي الناعم... أو من التراب الطيني الناعم أيضاً...** وأنا أتوكأ على أكتاف من اصطحبوني من الأوفياء **ناس... (سيف تاج الدين "مدير مكتبة الجامعة بالدبة" والصادق البديري... الإعلامي المعروف)**، متخطياً ومتسلقاً، أطلالاً بالية من اللبن **(الجالوص)**، نصّبت نفسها شواهد على ماضٍ كان ينبض بالحياة، في كل منحى، فقد كانت تطل على النيل، متّشحة بما نسجته الطبيعة عليها من نباتات خضر، تتبارى في تعاليها وفي انبساطها وتمدد مساحاتها...

هنا ولد (الأديب)...
وهنا ترعرع ونما عوده...

حبته تلك الطبيعة بكل الأريحية، من فيئها المرتوي زلالاً طيباً وبهاءً ناضراً... ودفعت به متشبعاً، بكل ما انسكب عليه... ومما ارتشفه من فيض وجداني... وروحي دافق، دفعت به إلى رحاب أوسع... أكثر شمولية، قاده إلى تشكيل شخصيته المتفردة، بكل رونقها وجمالها...وسما بها إلى آفاق جديدة، ساعدت كثيراً، في بذر بذور الأدب... ونموه بين جوانحه.

حدثني ذلك الطلل...

أنّ ساكنيه الطيبين كانوا زرّاعاً محترفين...!

فقد نجحوا في تنمية وتنضيد دواخل (أديبنا) وترتيب ذاته... باحتراف لا يُماثل، دس فيه من كل خميل زاهٍ زهرة... ومن كل نبع صافٍ قطرة...فأينع، وأثمر، واستفاض، وأربا، وأهدى الكثير، من غير منٍّ ولا أذى.

إن أنسى فلن أنسى... في تلك الربوع... ذلك الرجل الصبوح...

(الباقر بكري)...

الذي توجه بي ممتطياً حماره، **الذي لم يمهله كي يبطئ في مشيه،** بل علاه بالضرب على **(رقبته)**...باستخدام **(مُطرق)** صغيرة...قطعت حديثاً من إحدى الشجيرات، صاحب ذلك استخدام ساقيه في عمليات **اللكز** على جانبي الحمار، والتي تعرف في مجتمعاتنا **ب...(اللكد)** بفتح اللام الثانية وكسر الكاف...

وفي بعض الأحيان قد **يغمز (غمزاً)** خفيفاً بدل **(اللكد)**، وهو أهون نسبياً منه، وكثيراً ما يفهمه **الحمار** فيتحرك مسرعاً، خوفاً على نفسه من **(لكدة)** قاسية ربما ترتبت على عدم استجابته الفورية **ل...(الغمز)**.

قادني **(الباقر)** إلى حيث يطل منزل أسرة **(الأديب الطيب صالح)**، في أقاصي **(كرمكول)**، ناحية الشرق، وهو ذات المنزل الذي تحولت إليه أسرة **الأديب**، من مرقد ذلك الطلل الباكي، بعد فيضان النيل الشهير عام 1946م...

هنا التقيت بجار الأسرة **المدعو (عبد الرازق)** ذلك الرجل البسيط... المتواضع، وهو من حدثني عن **(الطيب)** وخلقه الرفيع، فاجتر نفس ما سمعته من حديث سبق لي استماعه في **(أصيلة المغربية)**، على لسان صديق **الأديب** المغربي:

(إن الطيب رجل طيب... فهو اسم على مسمى!)

حدثني بأريحية صافية، عن أماكن جلوسه على الرمال المتمددة أمام فناء المنزل، وعن **(الزين)** وعن **(دومة ود حامد)**، وعن **(مصطفى سعيد، وود الريس، وبت مجذوب)** وأضاف الكثير المثير... الذي سال على لسانٍ بالمودة زاخرٍ... وللخير ذاكرٍ....

ألفته وألفني... بعد أن شممت الصدق والإخلاص من بين عينيه الواهنتين، بعد عراك طويل، أمضيتاه مع سنوات من العمر... **انقضت عجلى... متدافعة للأمام، من غير خور يبدو أو توقف يلحظ.**

رحمك الله يا **(الطيب صالح)**...! لقد أتحت لي ما لم يدر بخلدي قبلها... فقد تتبعت خطاك...من أقصى الغرب الإفريقي وحتى أقصاه شرقاً، فاستأنست كثيراً برفقتك... وبسيرتك ... وذائع صيتك...

فوداعاً.. (أصيلة).....

ووداعاً.. (كرمكول)....

وإلى لقاء.....!

المضيق الآسر

(العدو أمامكم والبحر من خلفكم...)!

عبارة أصبحت مقرونة بالقائد الإسلامي **(طارق بن زياد)**، قائد جيش المسلمين الفاتحين، بعد ما اجتاز **المضيق** البحري المؤدي إلى بلاد **الأندلس**... وذلك بعد إحراق البواخر عند الساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط...

ألقيت نظرة مشبعة بعبق التاريخ الإسلامي، عبر ذلك **المضيق** الذي يعرف **ب...(مضيق جبل طارق)**، وهو من أهم المعابر البحرية في العالم، والذي تفصل ما بين ضفتيه مسافة 12 كيلومتراً بالتقريب، في البحر الأبيض المتوسط...والذي يمثل جنوبه، **حيث أقف**، أرض المملكة المغربية بمدينة **(طنجة)**، أما شماله فيطل على شبه جزيرة إيبيريا، **دولة (اسبانيا)**...التي كانت تعرف **ب...(الأندلس)** وهي دولة مسلمة.

كان يسمى قديماً بالتسمية العربية (بحر الزقاق)، ويحد مدخله من جهة المغرب ما يعرف ب.. **(رأس سبارتيل)** ومن جهة اسبانيا يحده المدخل المعروف بأسم **(الطرف الأغر)**....وتعود تلك التسمية للقائد طارق بن زياد. وقد حرف اسم جبل طارق وأصبح ينطق باللغة الإنجليزية (جبر لطار)، وبالإسبانية (خبر الطار)،

لا يفوتنا أن نذكر هنا أن منطقة (جبل طارق) تتبع للإدارة البريطانية وليست لدولة اسبانيا.

عند نقطة التقاء مياه **البحر الأبيض المتوسط بمياه المحيط الأطلسي**، يظهر للعيان رسم مائي يعلوه البياض **(الزبد)**، يمثل حاجزاً واضحاً ما بين ماء الأبيض، الذي يخاله الرائي يتدفق من جهة الشرق بأمواجه الهينة نسبياً، حيث يلتقي بمياه

المحيط الداكنة، التي تدلل على عمقه البعيد، ذي الأمواج العالية...والتي شكلت مع أمواج البحر... ذلك الحاجز المائي الذي أسلفنا ذكره.

تعانق سمعي وانبعاث صهيل جياد المسلمين العربية الجامحة، التي تنقر بحوافرها الأرض المسلمة... **هناك عند الساحل الشمالي للبحر**... تلك الأرض التي استبيحت **غدراً وقهراً وإهمالاً**، كانت الجياد تنقش بذلك النقر، أحرفاً تمثل بداية تأريخ إسلامي عربي تمدد لمئات السنين، فتعالت وقتها عندي صيحات الفرسان من أجدادي... مهللة ومكبرة، تدوي... وترعد... مبرقة بملمع السيوف، والدروع... في غير ما وجل أو خور أو تراجع....

رأيت بأم عيني مصرع الكافرين من أولئك البيض... وهم يخوضون حرباً لا يطيقون أوارها، يتملكهم الفزع ويبتليهم السأم، وقد ضاق بهم الفضاء... فهم ما بين صريعٍ، أو مضرجٍ، أو مفجعٍ مرتعد الأوصال، يتخفى مودعاً أرض المعركة في إدبار متلاحق يروم به النجاة.

بدر إلى ذهني ما استغربته **عندما تساءلت:**

كيف توصل أجدادي من المسلمين الفاتحين، إلى موقع ذلك **(المضيق)**، الذي تخصّر البحر عنده ...فتقاربت المسافة ما بين الساحل الجنوبي والشمالي ... حيث أصبحت لا تتعدى الإثني عشر كيلومتراً بالتقريب... كما ذكر سابقاً؟

عند ذلك **(المضيق)** ...ضاق الفضاء بجيوش المحاربين الفاتحين من الرجال المؤمنين، وغادرت السفائن مراسيهن مشرعات ... متدافعات... يمخرن العباب، فهن يكدن من فرح يطيرن بأشرعتهن ... إلى حيث يلقين بأحمالهن على أرض الشمال، حيث كان القدر يقف لهن بالمرصاد ...

هناك تقاذفهن الشرر... فتلظت... أوصالهن وأودت بهن النيران ...بأمر من القائد **(طارق بن زياد)**، الذي كان يملؤه ويغمره الإلهام الإلهي العامر، وكانت تغلفه الروح الواثبة للقتال، وتعهده بتبني الجسارة في ملاقاة الأعداء ...وهما اللتان تملكتا وجدان وإرادة أولئك المقاتلين الأفذاذ...

أما الإجابة على تساؤلاتي السابقة:

فقد طرق أجدادي من علماء العرب، كل أبواب المعرفة ... واقتحموا متاهاتها في مجالاتها المختلفة ... **كالطب، والكيمياء، والفيزياء، والرياضيات، والفلسفة وغيرها من العلوم ...**

ومن بينها علوم الجغرافيا، التي اقتحم مجالها العالم:

الإدريسي (1099- 1166م)

وهو الذي قام برسم خريطة للعالم موضحاً **فيها:**

مواقع دول العالم على الكرة الأرضية، في اليابسة والبحر.

ألا يمكن لنا ومن هذا الإرث العظيم، أن نصل بالفاتحين من الرجال إلى أقاصي أطراف الكرة الأرضية؟ مستخدمين كل ما هو متاح من الوسائل والوسائط، حسب تضاريس ومكونات تلك الأماكن؟

من الرجال من توغل في متاهات إفريقيا جنوباً ....ومنهم من ساقته الخطى إلى ما وراء بلاد السند.... ومنهم من احتضنته بلاد الروم.... وبلاد فارس.... سوى أن كان ذلك عبر **حملات الجيوش، أو الجماعات، أو الأفراد**، فانتشرت بذلك ثقافة، ومعالم الحضارة العربية والإسلامية، ورفعت وتعالت راياتها في شتى بقاع العالم.

عزيزي القارئ.....

على سبيل سيرة **المضايق البحرية**، وفي مسيرة **تعلمك الذاتي**، هناك العديد منها حول العالم، تفوق الأربعين مضيقاً نذكر من بينها... **أشهرها** ....

مضيق:

- **باب المندب**، الواقع بين المحيط الهادي والبحر الأحمر.
- **أغاتو**، في اليابان.
- **أكاشي**، في اليابان.
- **أوريسند**، بين السويد والدنمارك.
- **أوترنتو**، بين ألبانيا وإيطاليا.
- **باس**، بين تسما نيا وأستراليا.
- **بالى**، بين جزيرة بالى وجزيرة جاوة.
- **برينغ**، يصل بين أمريكا الشمالية وآسيا.
- **البوسفور**، يصل بين آسيا وأوروبا.
- **بونيفاسيو**، بين سردينيا و كورسيكا في البحر الأبيض المتوسط.
- **بافن**، بين جرينلاند وجزيرة بافن الكندية.
- **بنما**، بين المحيط الهادي والمحيط الأطلسي.
- **تيران**، عند مدخل خليج العقبة.
- **تورس**، بين استراليا وغينيا الجديدة.
- **جوبال**، بين رأس محمد في (سينا) ومصر.
- **دايفس**، بين جزيرة بافن وغرينلاند.
- **الدردنيل**، يفصل بين آسيا وأوروبا.
- **دوفر**، بين فرنسا وانجلترا.

- **دانمرك**، بين ايسلاندا و جرينلاند.
- **زنجبار**، يقع بين جزيرة زنجبار وقارة أفريقيا.
- **سانت جورج**، بين ايرلاندا و ويلز.
- **سكاجراك**، في شمال أوروبا.
- **سونر**، بين سومطرة وجاوة.
- **الشمالي**، بين اسكتلاندا وايرلاندا.
- **فلوريدا**، يصل بين فلوريدتا وكوبا.
- **فرموزا**، بين الصين وتايوان.
- **كوك**، يصل بين الجزيرة الشمالية لنيوزيلاندا والجزيرة الجنوبية.
- **كوريا**، بين شبه الجزيرة الكورية واليابان.
- **كيتان**، يقع في اليابان.
- **كانمون**، يصل بين جزيرتي هونشو و كيوشو اليابانيتين.
- **كاتجات**، يقع بالدنمارك.
- **كيرش**، بين شبه جزيرة القرم وروسيا في البحر الأسود.
- **لابيروز**، بين جزيرة هوكايدو اليابانية وجزيرة سخالين، الروسية في المحيط الهادي.
- **مادورا**، بين جزيرتي جاوة و مادورة الأندونيسيتين.
- **ماجلان**، يقع بين أرض النار ورأس هورن بأمريكا الجنوبية.
- **مسينا**، بين جزيرة صقلية وإيطاليا.
- **مكسر**، بالمحيط الهادي عند اندونيسيا.
- **ملقا**، بين ماليزيا وسومطرة.

- **موزمبيق**، يفصل افريقيا عن جزيرة مدغشقر وهو أعرض مضيق في العالم.
- **ناروتو**، بين جزيرة أواجي اليابانية ومنطقة شيكوكو في اليابان.
- **هرمز**، يفصل بي شبه الجزيرة العربية وإيران.
- **هدسن**، يصل بين خليج هدسن وخليج بافن في كندا.
- **يوكاتان**، بين كوبا ويوكاتان في المكسيك.

كان حظي من ذلك المشهد الآسر.... أن أقف مهوّماً ببصري... وناظريّ مشدودان.. عائمان.. هائمان.. حول ذلك الخط المائي الفاصل، المفتول بعناية فائقة.... والذي يعلوه **(الزبد)** المتلألئ بياضاً.... والزاهي حسناً....عند **(رأس سبارتيل)** بمدينة **(طنجة)**.

ما فتئت أتلمس ذلك الحاجز الخرافي، بعين فاحصة.... فأدس بنفسي هناك، حيث يرقد إحساسي المرهف.... وأشعة صفراء، تنبعث متتابعة من شمس تبدو منكسرة.... تلوح بأياديها الواهنة، تعلن لحظة الرحيل! لتنغمس داخل مياه المحيط....وأنا ساعتها أغوص.... و أغوص.... في خضم متسع، من فيض مياه ممدودة حبائلها، المترعة جمالاً وفتنة.... صاغتها و أبدعتها يد الخالق القادر.

غابت الشمس يومها.... وغادر الضياء خاسئاً و حسيراً! ولم يشأ الله أن تغيب شمس ذاتي، ولا شمس ذاكرتي.... التي تعلمت منهما:

كيف يمكن لساعة الوداع أن تكون،
قاسية، وباكية، ومبكية، ومؤثرة.

دفع بي ذلك الوداع القاسي، في وجهة لم أجد للماء فيها متسعاً.... كما كان الحال عند مجمع مياه **المتوسط** ومياه **المحيط**.... فأشرقت شمسي ، وأنا أعبر مدينة **(مكناس)**، شرقاً... حيث انتهت بي المسيرة عند أبواب مدينة التأريخ.... التي تجاوز عمرها الألف والمائتين من الأعوام.... وهي ترفل في كامل حليها، وزينتها، فهي لا زالت تبدو كالحسناء ليلة زفافها.....

تلك هي مرقد الإمام الصوفي، العارف بالله، الورع، شيخ الطريقة التيجانية الشهيرة،

الشيخ أحمد التيجاني (رحمه الله)،

وهي التي تعرف ب..(فاس).

والتي يطلق عليها الكثير منا:

(فاس الما وراها ناس).

يطول الحديث عن (فاس).... وعن (مكناس).... وعن تلك المدينة الساحرة ذات الخاصية المتفردة (مراكش).... إن شاء الله لنا الحديث عنهم، في مقبل الأيام.

ذكرى الربوع

ليكن **(الباهي ود حمدان)** عنصر الحوار، و ارتكاز المقال في البث والإيقاف عند المرافئ ، فهو قد درج على الوقوف والتأمل، ودرج على الثبات وبعد النظر، وانطوى على الإيمان والصبر ، أصبح الكبر عنده يعنى الدخول في الأغوار لاستنباط مايدور بالمخابئ، وأصبح الصغر يعني لديه التعمق في دقائق الأمور والكشف دون الغطاء ، والعطاء فضلاً كان أو نزعا أصبح رغبة بغير شح .

تم الفصل أخيرا وغادر الروائيون، ومازال المشاهدون في دهشة وحيرة، تبعثرت نظراتهم وتداخلت، وتصاعد منها ضباب كثيف يعانق أبعاد النجيمات، التي قد خاب أملها في التلألؤ، وفات عليها إثبات كيان أضحى سرابا لا يتدانى كي يُرى، ولا يبدو ليتبينه المشاهدون، فقد غادر الشط وغار ، وأضحى الظلام يضم الحنايا، وانطلاقة الأنفاس، وتنهدات الصدور، وخفقاتها، انزوت من وراء هذا المخيم بلا مهادنه .

أتى الصوت ، صوت من السماء يقول (...) أبداً لا يقول شيئا ، بل يئن .. يئز أزيزاً انطوائياً، قلما ينم عن شيء .. فهو يخفت كي يئز، ثم يخبو فيعود مغادراً رويداً... رويداً... في داخل السماء، إلى أعلى.. وأعلى.. فأعلى ثم يغيب .

يأتي المساء بداخل المساء .. فيبتعد كل شيء، وينتهي كل شيء، حتى **(ود حمدان)**، ما عاد متأملاً، بعيد النظر، و ما عاد صبوراً، لقد زوي كل شيء، وغادر **(ود حمدان)** مع الروائيين، وإن عز عليه الفراق، فقد مات كل شئ وغار .

(كردفان) .....،

قبلة الغريب وبداية الملتقي ... تختال لتنادى على فتاها، وتحشو النفس آمالاً ، فلا غرو، لكن تمزق الأحشاء ما عاد المفارق أهله ، والضم بالصدر، أصبح مسلوب القرار، وانفراج سريرة **(ود حمدان)**، يفرط كثيرا في التجاهل واللامبالاة ، والمشية المشبوبة، تستند **بعكاز** على ساعد الزمن ، فقد صار الخيال مجدولاً على فتات المخزون من الذكرى، و أصبح مسبلاً على شتات أيام الزوال،

هنا تحت التراب، تكمن علة المحصول، حيث يسري الدود، والثعبان، والسوس، والنمل، والقمل أحيانا، فيختلط هذا وذاك، وتتعذر الرؤيا، ويبكى **(الباهي)** على الفرقة، على الكلمة، على ماض ما زال تواقاً يطوف في الدنيا بأجمعها ، على فكر، على بدن بالهم منشغل.

تدور الرحى وتبدو **(كردفان)** أزهى ما تكون، يأتي **"العيش " و "الديب " و ناس (آمنه) و ناس (عبد الله) " و (شديرة الغبيش)،**

(ينم (الباهي) و ينوني كمان... بى (نضماً) بعرفو براه، ونايملو فوق راياً بخبرو براه... يدغدغ في عويناتو بى إيدو الملانة تراب، والايد التانية مشغولة بالعكاز...)

(الليلة يوم العيد...
داير اشوف أمي، وأشوف طير البقر،
و (شديرة) الخروب، و شديرة القضيم ،
داير أصرر نعيجاتي، واشم إيدي،
وآكل "البريدة" باللبن،
قبال طلوع الشمس،
مع شراب الشاي.)

ينـوني (البـاهي) بـى وجعـة، ظـاهرة خطوطهـا فـي (وجهـو)، التقـول خطـوط (كنتور)، وهو يتحسر، و يعض على بنان أصابع كساها الندم، ناعياً أيام طفولته المفقودة، التـي كستها أثـواب البراءة، والحنـين الـدافئ، فـي فريقـو (الخـت) فـوق (القوز) (الوراهو) الحلة:

حليل أيام الفريق،
أيام الوليدات تمشي الزرع،
وتقبض العتاب،
تسقيه موية مطرنا الما غشاها تراب،

نقية لو شفت ...يا يمة،
موية الفولة ... حلوة حلاوة السكر،
وموية بيرنا ... بير حمدون ...
حلوة حلاوة السكر،
وحلوة حلاوة المريود لمّن يقول لِي سلام،
ويخت إيدا فوق إيدي،

وموية الغربة، أكان ضقتيها...
زي حلاوة العريب،
وزى لألوبة خدرة... في فريعاتها.
مره ... مرار!
وزى شوكة الهجليج... وطعنة حسكنيت القوز،
حارة زى النار.

تشابهت البقر على **(الباهي)** الذي أصبح مطية الذكريات، و نسج الخيال، وعماد الخطـوط المبهمـة، فاسـتحال عليـه التعريـف والتخصـيص، فـأدرج الكـل فـي قائمـة الذكري، التي ما بدأها إلا وانتهى إليها، وما خرج منها إلا وبدأ فيها.... فحنينه يتزايد و..**(يقمُز كلامو من حتة لى حتة)**، في محاولة منه، لتجميع شتات ما تناثر من ذكريات ماضٍ طُمست معالمه، وتوارت آثاره...

بحن لى الرميلة...
الفى قفاها فريقنا،
وكتين المطر،
يكركر لى رعيداته...
ويتوسم فى بريقاته،
تلقيني يا الحلوة .. بين الحلة والبلدات،
بلملم فى ورق غبيش.

وبي حماري،
البخت على كتيفاته تيرابى..
وفوق سرجي،
بشب وأقول :
(باسملا يا السادات).

وين موسمنا..؟
وين كاجريب ترسنا..؟
وين حملتنا؟
وين صقارنا؟ يا حلوتنا.

يجوس **(ود حمدان)** في وادٍ وارفٍ من الذكريات ويتأمل، يشتعل بداخله الرجاء، والتوقع، واقتراب ساعات الصفاء، التي كثيراً ما توارت عن خياله.....

وفي المرواح...
بجينى النويح.. نويح دوكتنا،
والعواسة فى ادياتك..
تلوح لى ،
تنادينى وتقول لي:
تعال اتعشى!
تعال يا عشاي.. ضوق الزاد،
ان شاء الله جديد..
ونشوفه فيك جديد،

تغيرت نبرات صوتها، ومحتوى حديثها.. فصارت تدس من الكلمات التي يملؤها الحنين... ويضمها الأمل الدافئ... ذلك الذي يجوس بداخل نفس كل أم رءوم، مشبّعة بالتمني وحسن النوايا...

يوم الحنة، والزغرودة، ورمية المردوم،
يوم الصفقة، يوم السيرة لى ضريح الشيخ،
أشوفك تقدل وتقطع الريشات،
وتقول: تعالى يا أمي ... زغردي لي ، وصفقي لي،
حليلك (إتّ) يا وليدي.

بلا دليل أو قبس من ضياء، تندفع الرغبات، كانسياب الزمن على أمل قريب مبتغى، وتتشابه وحدات التكوين في نواحي **(كردفان)**، فتقوى العزم على استجلاب الخريف والضياء ، **فتغيم السماء!**

إن **خريف (كردفان)** كما هو الحال، محبب لنفوس الكبار والصغار، حتى الذين لا يكتبون أو يقرؤون، **الذين يزرعون الأمل ويبذرونه في مواضع المعاناة**، يطيب لهم **خريف (كردفان)**، ويسعدون لرؤية البرق الخاطف، وتسطو على نفوسهم نوبات الكآبة والملل، إذا ما أطل الظلام على غير أوانه ، أو إذا ما غاب القمر وانطوى، خلف غياهب ما تراكم من سحاب ، أو إذا غربت شمسهم، وتلاشى بريق سناها، عند الشروق....

وقتها تبدو الحال لدى (ود حمدان) وكأن شيئاً لم يكن، لقد صاحبته الوحشة أياماً، وأنهكت كاهله النوائب آجالاً، فغدا مطية لكبوات الدهر، وأصبح لا يضيره أو يغض مضجعه ما يغض... فرغباته لماضيه تتجدد، يمني نفسه ب..(الونسة)، مع (ناس آمنه وناس عبدالله)، ولى أمه يقول...

دا كله بدوره ، وبطراه يا أمى،
بدور الشيل،
بدور الونسة نص الليل،
وين ناس آمنة؟
يا أمي؟

وين عبد الله ود عمى .؟
تلقاه ديمة يصرر فى نعيجاته،
وقت السرحة،
باله كلُّه فى حميلاته،

رويان عبد الله..
لبنه ديمة وفير،

ينقط تف..تف..تف..
يكب يا حلوة فى الدورية وفى كبروسه،
يشرب...ويشرب.. (ويجغم)...
ويسقي لى وليداته،

شفته كثير بيحلب شق..
والشق الثاني... لى حميلاته،
بدورها تعيش...
تكبر تجيب العيش،

هنا يصبح **(العيش)** غاية منها تبدأ الحياة الهانئة، ويبدأ استجلاب الرفاهية والدعة، واستحداث المشروعات وتنفيذها، ومن بينها دفن العيش وادخاره، للكفاية المستقبلية....

ارادب فوق ارادب ... أخوى عبد الله،
بدفن العيش،
ووقت الحوبة ..
عبد الله مونتا في مطمورتا،
ما بدور يشيل عيشا للتجار،
وما بدور فضيحة الجار.

ثم ماذا بعد...؟؟؟

أيكتفي " **ود حمدان** " بنشر الذكريات على الرقائق؟ تارة تمشي على عجل، وأخري قد يخطئ القارئ في تحديد مداها ، واستنباط الذات، **ف.. (الفقر) و (القفر)**، عنوانان شبيهان لديه، وان شابهما التقديم والتأخير فى توالي الحروف .

بما لا يجدي لن ينتفع " **ود حمدان** " وبما يجدي يعزف " **ود حمدان** " ويفغر فاهه، بغية التقاط الكلمة التي تنسجم ونواياه ، فيعود القهقرى، لا ليتراجع، إنما ليجمع قواه، وتارة أخري يسدل عليها ثوب القناعة القاتم، كالدياجير، عند أطراف أودية **(كردفان)** في جوف ليلة من لياليها الخريفية الباكية.....

حليل ضو لمبتنا لمن تلاعبه الريح... فى ضلام الليل..
يروح تاركنا .. فى ضلمتنا،
ما بنخاف .. ولا بنفتش الكبريت،
نواصل لي كلامنا .. في ضلام الليل،

نطرى الفات .. ونطرى الغاب،
ونطرى اللقمة .. وعجين الحيب،
وشربة موية فى الكاجريب،
وركبة ناقة .. وقولة ووب...
وقولة.. يمه شوفى الديب،
بحلق ، بالفريق،
وصياحا بالآدان،
جيعان ...
ووب علينا ..
ووب على الحملان.

يشكو **(الباهي)** حاله في غربة لملمت عليه كل أنواع الهموم، وأشعلت بدواخله نيران زبالات مغمورة، في فيض من الزيت حتى الاكتفاء، فأصبح في ولهٍ ممض، تشهّت نفسه من خلاله ما تشهّت، مما هو قابع في طي المحال فيما يطارده من ظنون وتمنيات....

ووب علي أنا المشتاق أشوف
الديب،
واشوف الرمة فى القيزان،
وصورة الدم .. وطعم الدم،
وتمامة المحريب،
وبيت القش،
وقولة عرت ...
وقولة تك ،

حليل بلدى..
وناس بلدى..
وقولة كر،
مع جدادي.

يرن بأذني **(ود حمدان)** صدى قديم، ما حسه إلا وقت انتقاص الزاد، وضيق ذات اليد ، وقت اندفاع واندلاق السجية، في سفح الذكريات الوارف 000 وقت اجتياح الجدب، للأقحوانة الواعدة، وقت الفاقة والضياع، وقت العنجهية الهينة المزاج....

يري كل شيء، على غير المعتاد، والصدى ينزاح في تتابع كخيط الكساء الجديد، والتميز أصبح في زوال، ساعة مابين المغيب والشروق، حيث ينطفئ كل شيء، حتى الرنين عبر الصدى، إلا ما قد كان يتبختر ما بين الغطاء وما بين الجفن القلق، في ذبذبات منتظمة، تسلك طريقاً تخللها كل ما أنتجته قسوة الطبيعة، بعد نسج من الكساد والبيات والنسيان.....

غمرت **(الباهي)** نفحات إشراق الشباب، التي طوفت به، حيث أصبحت نظراته تائهة، فيما بدا من نضرة الوادي الغارقة في مياه الخريف، بعد أن عجنت الأمطار طيات الرمال، لتخرج أذينات حشائش خضراء، **و...**

"**(بصل الكلاب)**، و **(السلعلع)**، بعد ما **شم ريحتة (ود عربان)، (وكتين)** شق بلاد **(ود الجهينة)** العصر، بى **حماره، بعد ما تيرابها قام، و جارلو (غسن) غصن شوك.....**"

ما بتخاف الله ياود الناس؟
دا ما عرقي.. ودم قلبي،
دا كل الداخرو لى ولدي،
دا ما (مونتي) وعمار عيشتي،
دا كل الخاتو لى كبري...
ولى غنمي... ولى أهلي،
تجرجر فيه (غسن) الشوك،
ما بتخاف الله يا الدخري؟

يتداعى الحديث المرُ من بين مفتر ***(ود الجهينة)***، تغمره ذكريات أضحى لها طعم خاص، قد يساعد في تضميد جراحاته النازفة...

زمان وكتين الانجليز ختوا للقطر دربين،
وحبسوا المويه من ترسي،
ومن...
(طيني) الوارثو، من زمن جدي ... وجد جدي،

وحاتك كنت ما بهتم...
عشان الخير كثير عندي،
وعند أمي... وعند عمي،
وبيت أختي... ودار خالتي،
كان بى موية...كان بى لوبا،
باكل واشم إيدي..

الله يشهد ويشهد (عنيقريبي)...
البجرو في العصرية،
تحت حاحاية،
أو خشم قطية،

والباعوضة تنوني فوق اضني،
وفى سروالاً كبير بلم كرعي.

ومن موية في كورية بشرب وابل ريقي...
واخت بنيتي (السارة) في حكري،
(تقورد) لي... وتفلفل لي كمان دقني،

في (الوكت) داك...

وحاتك كانت كيلة عيشنا بى (ريالين)،
وكان (الأردب) بجيب (كبشين)،
و(غنماية) تحلب تف...
وبى (سخيلاتها)ا،

كان الموية ما بنضوقها لى يومين،
لبنا كتير وخيرنا وفير...
وبالنا طويل .....
وما بنبخل بى كتير وقليل،

ما الجود حارسنا من جدودنا قبيل...
نقول (حرمّ)، وجيبنا...ا معلم الملين...

وما بنندم عشان،
الحاج بجيب قدحه،
وود التوم يجب كورية..
بي ملاح لوبه فى العشوية،
وخالتي العازة....
بي عصيدة دخن باللبن مسقية،

وكان لى الدومة!
(براده) ما بنقطع مني...
ووقت (الحوبة)...
بلقاه ديمة فى جنبي،

في أرض الغربة والبعاد عن أرض الوطن، وافتقاد **(الليم)**، و**(الحنية)**، و**(شيلني واشيلك)**، ينادي **(الباهي)** ويناجي ما بالدواخل حيث يقول:

تعال الليلة شوف داري...
و (رمادي) ... و(سجم خشمي)،

جدادي السعيته، فات ..
رحل مني،
و(حولين) لي، من لبن غنمي...
ومن (جيرة) ولاد عمي...

حليل الحاج حليل التوم...
حليل لبني...

يمضى (الباهي) يؤلف رباط المحبة بين قدميه، فازدادا قرباً وكبرياء، فظلت قدماه قريبتين من الثرى، وطوق الشح خطاه، فبخل على المسافات الارتماء أمامه...
فبكى (الباهي) على أمل زوى وتجاذبته أيدي الظلام، فانتهى كل شيء، حتى الخرير انتهى والهديل انتهى، والثغاء انتهى،

(حليل أهلي...
حليل بلدي.....
وناس بلدي).

وقتها تبدو الحال لدى (ود حمدان) وكأن شيئاً لم يكن، لقد صاحبته الوحشة أياماً، وأنهكت كاهله النوائب آجالاً، فغدا مطية لكبوات الدهر، وأصبح لا يضيره أو يغض مضجعه ما يغض .

غريب أمر " **ود حمدان** " بكى كثيراً على **(كردفان)** ولياليها، واستمع كثيراً ل.. **(كردفان)** وأغانيها، وتاه كثيراً ب.. **(كردفان)** ومراعيها، وهوى أخيراً، وخبا نجم ضيائه، لقد عاد غريباً يخب في وحل الغربة القاسي .

كان هذا كل ما يبدو، أما في رواية أخرى، فقد كان على النغيض ... أضحى أليفا يؤرقه البعاد ، جال بنظره في رفق هين، كما تدلف الحسناء لرسم الخضاب على البنان ، **(برفق... رهيف...خفيف)**، كان يحس بوطأة البعاد والفراق، فيكتم كل ما يبدو، ويمشي هيناً على استحياء، بعيد الخيال، ثاقب النظرات، واسع الإدراك، ويلتقي ب.. **(كردفان)** التي قال فيها **الناصر قريب الله** :

أبدار ل..(كردفان) حنين،
لفتاها البعيد أم هـي تنسى ؟

و..

أنت من كردفان مهجر روح،
لم تهاجر إلا لتنزل قدساً.

و..

ورعى الله في الحمى بدويات،
زحمن الطريق مشياً وجرساً.
هن في الحسن للطبيعة أشباه،
وان فقنها شعوراً وحساً.
باديات النهود غير وشاح،
صان نهداً وخان آخر مساً.
مثل قوس الغمام يعترض الغيم،
ولا يوسع السحائب طمساً.

و..

كردفان أشحذي سلاحك إنا،

سوف نجلى الطغاة عانين خرساً.
وسنملأ الأرض طهراً،
بعد أن دنست فساداً ورجساً.

و..

رب سد بناه ما سد فقرا لفقير،
ولا وقى الناس بأساً.
غير إشباعه المزارع رقاً،
ما أقلت يد المزارع فأساً.

هكذا يحس " **ود حمدان** " بالهجرة داخل الهجرة، فيبتعد عن موقع ليصبح أقرب لآخر، وهكذا تتداخل الأمور وتتشابك، وتتشتت الآراء، ويصبح الخلود **ل..**

(نسج الذكريات،
ودفئ الربوع،
وحلاوة الرجاء،
لعودة الخريف والضياء معاً)
ف...:

بالصدر،
أسماء...
وفى الأحشاء أسماء...
وإخفاق على الصدر،

فنحن الليل إذ جنا،
كقاع الدار قفر و إخلاء..

بكيت على اليوم الذي ولّى،
فما صبري على الماضي على الدهر.

غريب عام أفراحي كعامي الثاني من عمري،
عجيب أمر أطواري و ترحالي و وجداني إذا حنا.

قضيت العمر ياربي كعبد بلا مولى،
عبدت اللحن والأنغام في الستر...
سأحمل كل نسج على السر...

وأحصر كل الذي يرجى،
لنبكى أحبائي على الدنيا،
فمربعنا نار وأصداء،

ففي الأحشاء أسماء...
وإخفاق على الصدر،
وبالصدر...
أسماء.

هكذا يضع **(ود حمدان)** المعايير والمقاييس لكل ما يطرق خلده، وهكذا يخط الصيغ التي فيها يري تناسب المقام، وهو كثير الإيمان واسع الإلمام ، بأن محتوى كل ما يصوغ إنما هو عجز عن القدرة أو الإقرار، فالتواجد ما بين الحين ... والحين يملى عليه أن يملى على السائد بينهما بما يسد النقص، ويرفعه درجة قد تتجاوز مؤخرات التكامل، وما هو دون ذلك، ولكنها تبدو في حينها على ما يري " ود حمدان " أسمي من ان يرسم عليها شعار الندية وبداية النهايات.

المعيار **ل..(ود حمدان)** إرادة غير ذات كينونة .. من الصعب ورود ذكرها في طائلة أحد مكونات القوائم القابعة بين يديه، فهو كنفس **(ود حمدان)** رائدة اليمين واليسار واللاّ انتماء فهو قوة متلفعة بدثار الخور ، وغضبة مكتوفة برباط الغبطة، تلك التي قد تأتى على أثر ارتجاج خيط العنكبوت الواهي، وقد تتصلب ملئ العنفوان متعصية متأبية.

مثل هذا المعيار أضحى رغبة الغالبة المغلوبة على أمرها ، وأصبح ترياق السلسبيل للشرد الضائعين، وغدا حصنا دفيئا للاجئين عند ما تسطو وطأة القر والزمهرير، لقد أصبح كغيره من المعايير ، معيارا يسد بالقدر حاجة مستخدميه ، ولم لا **ف..(ود حمدان)** مكسور الخاطر .. مكسور الخاطر .. سلس النظرات ثاقبها .. يري حين يري وجه الزمان كالحاً مضيئا ..

فوا عجبي ما زال **(ود حمدان)** غريبا .. فهو يدنو من التناقض كلما تدافعت الثواني فى اضطراد .. إلى متى ياترى يموج خاطر **(الباهي)** بفتات الجزيئات العارية؟ ... المتأرجحة الخطوات؟، التي تبدو وكأن تيار الزمن، ما عاد ذا اثر على ما توالى من أحداث .. لعله الزمان نفسه الذي أودى بكل شئ إلى غير النهاية ..

فالوجود يعني " ما قبل النهايات " .. والنهايات هنا (لود حمدان) تعني بداية الوجود، في صيغ وفق قوالب جديدة مستحدثة.

لعله الرجاء لعودة الوجود ما دفع " ود حمدان " لان يظل غريبا ،غير آبه بما قد ينمحي أو يتوارى .. وما قد يكبو أو يفتئد .. فطالما كان الآتي مستدركا سلفاً فلا مجال أو قلق، لكنه التقلب الذي يورث الحمية والتعظيم أحيانا ... والسخط والحقد ، ثم الفقر وأخيرا الضياع .. وكما يري " ود حمدان " حتى هذا الأخير فهو ما قبل بداية خلق جديد مميز ..

إذن فلا غرابة أن نضيع ، ولكن الغرابة تكمن في عدم اجتيازنا الحواجز المؤدية للضياع ، أو للانطلاقة المرجوة لما " قبل النهايات " **ف... " العجيب** " والغريب مجرد أحرف تتآخي وفى وئام تلتقي لبناء ما ليس هو عجيب ... إنما اللامحدود فيها أن يأخذا طابع كل مفسر متفائل أو عكس ذلك 00 وان يواكبا مبتغي كل راغب في تيار قد يكون النقيض تماماً، لتيارات موجودات في ما " قبل النهايات " أو أن يكون أحد أطرافها .

يعني هذا أن يكون " لود حمدان " الخيار في تحديد الهوية .. والمعاني مجملة أو مفرقة .. بصياغته ورغبته كما يري .. وكما هو غير مألوف ، فإن أمثال " **ود حمدان**" كثيرون .. بل هم كافة الأطراف، إن جاز لنا القول .. غير بعض العراة الذين يرتادون مناهل ألامبالاة والمعاناة .. ففي قلب الوحل يناغون .. وكأنما الوجود يعني لديهم ساعاتهم وليس كما ينم ل...**(ود حمدان)**.

ولكن .. ماذا يعني كل ذلك لصغار كردفان الضائعين .. ؟ والآكلين لحوم الأنامل عند نوبات الكفاف .. الآخذين على السري بين مناهل تزف باللا وجود ، إلا بقايا لشظايا من نفحات النغم .. العائدين من غير عائد .. يتزاحمون في الفضاء العريض .. وهم لا يدركون .. أن " ود حمدان " قد عاد .. أو لن يعود لكنهم متى يعرفون أن " الباهي " إذا عاد أو شق عصا الطاعة وأبى العود .. فهذا ليس بذي أهمية .. إنما " ود حمدان " مازال يركل قريباً في ما "قبل النهايات " على أعتاب الوجود .

لكنه ما زال يتطلع لرعود **(كردفان)** بهزيمها الذي لا تقطعه إلا السهام المتقاطرة، التي تتدافع في اتقاد ذات اليمين .. وذات اليسار ثم تخمد .. لتبدو حين تصطخب الرعود...

ماذا يود **(ود حمدان)** من **كردفان** ..؟ برعودها و بروقها الواعدة، أينتظر أنهيار الغيث مدراراً سحاحاً بين الفينة والأخرى؟ .. أم ينتظر ساعة زفاف وديان الربوع ، عندما يُشاء لها أن تتدثر السندس، فتختال اخضراراً، وتموج ألهوينا بين طيات الزنابق تبختراً، في غير ضباب من الكبرياء .. ؟

الرجاء .. يبعث للخاطر ما قد انطبع على التواري خلف الغياهب .. والعيد يأتي .. " و "**ود حمدان** " مازال يسبح في خياله محلقا في سماء **(كردفان)** .. تتدافعه الظنون مع اليقين أحيانا .. فهو لا يدري.. إنما خياله قد درج على ذلك، فله في العيد فلسفة .. وله في الحفاوة رأى .. كما له في التحديد شأن قد لا ينال الرضاء لغيره .. "**ود حمدان** " عصر فريد .. قد لا يعود أبدا إذا مضى ..

" **ود حمدان** "عنصر عهده المقوم .. **السالب والموجب** على حد سواء .. يراه البعض بالعين المجردة .. وبعضهم تحد غشاوة بناظره، من اختراق ما تستر خلف الضباب فلا يجسده للرؤيا ولو بأعظم المجسدات تقنية .

افتقر " ود حمدان " النشوة يوم عيده .. هزته الرواية من كيانه .. فعلى صوت المزامير.

نداء لنفسي،
كقلب الطفل،
كنجم أضاء...
كآه على أمل ذوى،
كآه على ومضة طل...

تسابيحي تناجيني فيعوذني الثغاء،
تناديني فأربع في متاهات الدنا...

أين حبي يارفاقي وافتناني أين المنى،
أين أحلامي يا صحابي أين أيام الصفاء...

هاك منى كل ما ترجوه عنى يا نداء،
كل أيامي ذكرياتي وأوهامي وعهد الصبا...

أذيب الروح حسرات تمازجها النوى،
سأمضى على الذكرى بمكنوز الهباء...

أهكذا بنا انقطع الرجاء؟
أهكذا يجوس على الفكر الونى؟

فالصوت باعثه انطوى،
ليعانق أصدائي بذل...
والقلب كالطفل،
كنجم أضاء...
وكالنداء...
لنفسي.

كان يهذي كالمحموم .. هذا ما كان يترادف وأزيز المزامير .. كان يسمع وكأن السمع أصبح نوبة تغض من مضجعه ... ويسمع وكأن بالأذنين وقراً .. يسمع الكثير ولكنه القليل جدا في مضامينه .. يراه غريب التكوين والتشكيل .. يتعجب حين ينظر الى السماء الدنيا وهى تغيم وتبتعد .. وكم غامت وما انجزت وعداً .

خضته الكآبة مرة أخرى .. وأورثه السقام سطوة المرارة في ذات الوقت.. كما أورثه يبس العودة .. فأنطوى على اليباب .. عله الإلف الذي اعتاده .. أم لعلها القناعة بعد الكبوة الأولى .. هى التى أفسدت عليه عبق الزهر ورحيقه .. وهى التى انكبت على الرضاب تحشوه علقماً ...

وهكذا حار **(ود حمدان)** في تدافع الأيام التي ما استكملت إلا وحملت على رأسها عيداً .. ليردف من بعده آخر فآخر وهكذا.. فالعيد مسرة متداخلة الأرجاء لديه...

عيد **(ود حمدان)** كآبة متنافرة الحواشي، يعدها فتأتى بلا عدد ، فكأنها سرمدية الكيان .. فهي تمضى **ب.. (ود حمدان)** ويمضى معها .. ويتوقف حيناً .. ثم يبدأ السير من جديد ، وكله أمل في التوقف .. عند نهاية الشوط، الذي يحتم انتهاء مسيرة **(ود حمدان)** إلى ما بعد الزوال .

وقفات (الباهي) تحمل معناها الخاص .. وتوقفه عن السير، له معناه الذي يخصه .... فإن لم يكن كذلك، فلا معنى لأن يكون (ود حمدان) لصيق ما يعتقد .. بل ما يرد جملة تحت اعتقاد الراكضين خلف سراب النهايات... حيث تتزاحم جموع المعلقين .. الغافلين ... الذين يقفون عند البداية، وهم أبعد ما يكونون عنها، وأبعد ما يكونون عن تلك النهايات .. ولكنهم واقفون، و.. (ود حمدان) يعلم جيدا سر الوقوف .. ومعنى السعي وراء ما بعد الزوال .

ما هذا النهج الذي انطوى خلفه **(ود حمدان)**؟ أهو اتساع .. الأفق عند انحسار موجات الضباب، أم أنه الاندراج في قائمة ألّا إدراك؟، عندما تكتظ السماء بسوالب الرؤيا ، يدس القناعة دساً في حنايا **(الباهي)** ويمضى على الطريق .. يبادل الطارقين خلجاتهم .... عند الحاجة .. يختالون كما يصورهم النظارة إنما الاختيال

قد يكون محنة التفسير والتقصي ، ففي غير الغالب الوارد تصف المعاني إيجاباً، لكنها على النقيض تأتى غالباً ..

أصبحت النظرة **ل.." ود حمدان** " ارتكازه على عكازة سمصقولة أطرافها .. ثابتة القوام ...تنم عما يدور في فلك الإرادة ، وتندرج في صعيد الثقة .. شبراً أو باعاً إذا عنّ الأمل وشعّ . كالمواساة والمأساة حين تأخذ بالتلابيت ، سلبية كينونة **(الباهي)** إذا شاء لها الحظ الارتباط بما يدور في محيطه ، عقيمة نظرة **(ود حمدان)**، في بال العابرين حين يحسون المعصية ، فالقدر أعظم من التمعن وانطلاق الخيال ، والقرب من النقيض يزج رصيفه في منأى عن المعاطاة .. لانه بلا نفع ، وهكذا انقلبت المعايير مرتين في لحظة اندفاع، وانسكب المكنون من الحنكة والحيطة على غير إرادة ...

فكل ما تولد يتنافى والمرتقب .. والظل قد لا يستساق والقر يطمر الصراصير في أجحارها ، ولهيب منتصف النهار محبب إذا ما الشتاء استعاض بالبقاء دون الرحيل.. أبعد هذا يصغي (ود حمدان) لأنة طارئة ... لضريج جريح ... او للعابرين الساقطين ... فى أيدى القدر؟ فقد يبدو هذا أبعد من قالب الآدمية، وقد يكون أبعد من أن ينتهي لندائه **(ود حمدان)**...

مضى العام ولا زال **(الباهي)** ذبالة ريانة الفتيلة ... ومضى العام **و(ود حمدان)** أرجوحة منعمة الخطو ... ومضى العام و **(الباهي)** كهدهدة اليتيم إذا ما تضور معاناة في المهد .. ليته أدرك أن العام إذا مضى حمل بين طياته أثقال من أعيته السنون .. فتكور يجمع بين أركانه أحداث زمان بأكمله .. وتغلف على أسطورة او أسطورتين، سرتا على فم مذق ساعة زمان .. واحتوى زجلاً شريداً قد أعيته تباريح النوى وقت إذلال ..

الوقت أحداث وكفى .. تشغل حيز وجودها بين حين وآخر، ثم تأخذ في الضياع .. وتلفظ أنفاسها عندما يزاح القيد عنوة لحظة الوداع .. والوقت عاماً أو ساعة، كورقة شجرة **(الحراز)** تذروها رياح الخريف .. تنسل منها شظايا القطر فى غير ما رحمة .. وكانسكاب الكأس ما بين لحظة الوجود والإبداع .. وكالبرق اذا عنّ وتسرب داخل داكن مزنة تعدو .. فالكل ماض ولكن لأية وجهة ياترى .. ؟ أليس هناك عودة إلى القهقرى ..؟

أولا يعني ذلك عودة رنات ساعة مجدولة على جدار غيهب عتم ..؟ إنه العدم! وكما راق لنا فلن يعود إلا إذا اندس فيه النقيض، كما استحوذ علينا الخنوع في وقت مضى...

ما الذي أودعه هذا العام في كنانة الذكرى...؟ غير التباين في الأحداث ثم تلاشى بعيداً... بعيداً ، لقد وقف نصب الأعين على اثنتين، وما فتئ أن انحنى العود وانكفأ، يلتقط ما تناثر من أملٍ خبا هباءً من بين الأنامل، عندما انعكس فعل الضغط، وطافت الجاذبية في خيلاء، تشد الأسير شد المقت المحشو حقداً عند الإثارة .. وبذلك دنا وابتعد فى آن واحد .. وسار رويداً... رويداً نحو نقطة المفرق، والتي نصنفها نحن أبناء البشر وفق ما شئنا ...

في غد يعود زمان .. وبعد غدٍ يزاح الستار عن زمانٍ جديد، وينسدل في ذات الحين على آخر توارى يتوجس خيفة من الزوال .. فى لحظة أو لحظتين أو ما توسط ذلك في خلدنا، فإن الزمان يسير ونحن نسير، وهو شاهد عيان لكل خطواتنا الولهة المبتورة المعاني ... ففي رأينا أن الزمان قلّب .. ولكن جمعنا كله قلّب .. فتارة نزف بالأماني، وأخرى نجوس في غباء العاثرين في وحل الوساوس والضياع ..

الغد .. والأمس .. واليوم... نجترها خرقا بالية الكينونة، لا حساب لها في قرار الزمان، إنما نصفُّها بكل كبرياء تحت طائلة الوقت المسمى ... ونضع لها المعالم التي تمثلها سلباً وإيجاباً... كله العجز والوقوف لدى شرفات محجبة النوافذ ... نطل من خلالها بكل أسف المحروم ... فنقف على حال، نوازن بين هذا وذاك، بما قد تجود به دخيلة توقعاتنا، عند الوقوف لدى الشرفات محجبة النوافذ .. فقد تعلم الكثير وفقد الكثير .. تعلم أن يرى الماضي والحاضر والمستقبل بالعين المجردة، أسماء مفتعلة تحمل معانى مجازية في نظر **(الباهي)** .. أمام أبجدية قد تسر وقد تغضب .

تعلم التعامل (القطاعي... الفردي)، واحتسى عصارة كل ذلك، حلوها ومرها كنتائج للمواكبة ...تعلم أن لايرى الانسان فى ثيابه بل كما ولدته أمه ، مجرد، مكشوف البواطن .. رأى الحيوان بأنواعه فى الدواخل .. رأى النزاهة والبراءة .. رأى الترفع والتباهي .. رأى الطهر والعفاف .. كما رأى الضعف والقوة جنبا إلى جنب على الخط الوهمي .. وغير ذلك رأى الكثير المجرد .

ما افتقده "**الباهي**" ليس بالمجال المتسع، لأن يصاغ أو يسرد، فقد لا يعني الفقد لديه ما يعنيه **لزيد** ... وقد يكون الفقد ليس ذا معنى كما هو لدى **عبيد**، كما أن الفقد ليس بذي أثر على البال مثل **(التعلم الذاتي)** الذى قد يؤثر على الخطوات المبتورة .. ومن ثم فقد اهتم "**الباهى**" بإزاحة القناع وليس الخوض في غمار الجزئيات .

وأتى العيد مرة أخرى ... وبالوزن فهو على غير عهده بنا، فهو الحق في حين قدومه، يحمل كل مختبئ رضيعاً كان أم كهلاً، يزف بالأماني، وتحويه المزاريب بالسقيا والنغم ... نرجوه عندما كان غائبا ونألفه حينما نحنُ للقياه ... ويأتينا وما نبرح أن ننسى التواجد كما نسينا وعد القدوم .....

لقد احتار في تواجده اسماً كان أم فعلاً، فهو غريب على المنقادين لمتاهات تتنافى والأعياد وتتآخى معها، فالعيد لديهم قد يكون مجرد أحرف تمر على الخواطر، وقد لا تتناثر حتى من أفواه تغمرها حلاوة الحديث، ممازجة وبخر النتن، المتوطن في بواطن الضمائر والخبايا المعتلكة الجوانب ...

وقد لا يكون العيد عيداً إنما يكون نغمة على مسامعهم ... ومنكراً حين يتضاجع ونوايا البسطاء، ومن لا يدركون مزاولة الإرادة بالوجهين، ولذات الصفة فهم بسطاء لا يتطاولون لنيل ما قد لا يتماشي وفق طبائعهم، أو يساير بعضاً مما يتميزون به من خلائق وصفات ... وقد يكون العيد عيدا وان لم تكتنفه روح التمازج والقناعة، لدى المنزوين في مصاف البسطاء .. المعلن عنهم على جدران البديهية والسذاجة .

ما الخطب فى أن يبدو المقصود فى الحالين مزدوج الكينونة أهو التعصب أم الأنانية ام كليهما ... ام هو الجهل بالإدارك ... أم هو حال ما فوق المتناول؟ ....

الجميع قد يصطف في جانب الإيجاب ولو للحظة زمان ... والجميع قد لا يصطفون إلا فى جهة السلب، وان ضن الزمان بالامتداد ... ليس الأمر بذى بال إذا تهاوت القيم إلى حضيض أوهد، أو تسامقت تناطح ما علا من السحاب، فالأمر سيان حينما يقصد التناقض في حد ذاته ... والأمران شبيهان حين التأكد من مزاولة المتباينات تكراراً أو مراراً ...

إذاً ليشقى المتنعم الذي طالعته نجوم السعد في أرجوحته، وليسعد شقي زمانه الذي أنهكه الإعياء، حتى عنّ التطاول لنيل ما تناثر من فضل الفتات .

الراكضون خلف السراب كثيرون، يمشون مع الزمان بخطى وإيقاع أصم، لا يعكس إلا الاستهواء والبريق الخادع .. يتدافعون ويحدجون بعضاً حدج الملامة، حينما

تتلامس الأجسام بحركة الكترونية بحتة .. الكل لايعنى ما يطلب أو إلى أية نهاية ينتهي .. إنما هو معلق الخاطر، متحركاً مع التيارات الساخنة والباردة، تارة إلى أعلى وأخرى إلى الغياهب، وهكذا دواليك يسري اللاهدى والتخبط، كما النار في حصف الهشيم توشوش بابتسامتها القاتلة .

النظارة همهم كمن لا هم له .. يعيون نواظرهم حين يطيلون **(البحلقة)** في مجموعة المتناقضات، **فيجتهدون... و يهجدون...** إلى أن يحسُّوا مرة وأخرى، بنفس ما انقضى من ازدواجيات ... ويتقدمون من جديد، والجديد لديهم كالقديم، إلا أن فارق الوقت يصبغ عليه سمة الجدة .....

أفواههم حينما تفتر تلهب القلوب حماساً أو تسلبها الإرادة، فما يتناثر من أحرف عند الافترار، لا ارتكاز له أو عليه، فهو وليد اللحظة والمقام، وقد لا يقدم او يؤخر في الأمر شيئا لأنه سلبي إيجابي .. والنقيضان لا ينمان إلا عن التوقف عندهما بلا استجابة .

ما أصعبه من موقف على المصارعين، الذين يزجون بأنفسهم بين هؤلاء وهؤلاء ... هنا قبضة كتف ... وهنا لكمة كف... وما إلى ذلك من كل ما ينتج عن الدفاع والهجوم ... يناطحون الصخر لا ليعيا القرن إنما لينداح الصخر، أو حتى تتناثر بعض من حبيباته الهلكى .. فتذهب تدراج الرياح، أو لترسو بعضاً من تراب، او بقايا يعفو عليها الزمان من بعد حين، فتصبح من الأولين ...

الذين يكيلون الصاع بالصاعين مكابدة بالتواء، ويبددون كل ما قد يتكتل من ركام لسد منفذ مطروق .. ويباعدون كل ما قد يهيل الذر ويسبل القذى بالعيون .. إنهم الذين يريدون حين تذكر الارادة ... وإنهم القائلون إذا حان للقول أن يصغى له ... وهم الناثرون البشر عند المصائب .. ليتهم يعلمون ما لا يعلمون، وليتهم يدركون ما قد يدركون بعد طول عناء ...

يلتاع البعض فهم لا يفقهون ذلك لأنهم في وادي اختلاط الحابل بالنابل .. يباعدون هذا ويقربون ذاك ..للمضي قدماً، فالسبيل سبيلهم فعند الوطء تعرف مواطن الجمر، ولن يضار النظارة أو الراكضون من أذى قد ينتج أو احتراق راحة تعدو .

يتصارع كل ذلك بخاطر " **ود حمدان** " الذي ما أن استبان البواطن، حتى عكف يلهث بين هذا وذاك، تتباعد نظراته وتحترق، وتقوى خطاه وتخور، وهو يتلكأ أو يندلح كالسهم بين المتعاركين .. ربحت تجارته مرة وخسر مرة.... ومرات، لكنه ما زالت تراوده أشباح الربح الواعدة .. يمضى ليدركهم فيتباعد، وحين يقف يدنو ولهاً عليه.... وسرعان ما يتوقف هو الآخر ...

" **ود حمدان** " نبت أخضر على مدار العام .. مستقيم ممشوق العود، و متعدد الأفرع مخضرها .. أوراقه غرر تتناثر في كثافة بخار ماء الخريف .. يؤتي أكله حين يشاء .. ويحرم الآخذين منه عندما يضن ويجحد ... لأنه تعلم أن الريح تأتى اليوم من وجهة، وغدا تتغير وتأتي من صعيد آخر ... همُّ **(ود حمدان)** أن يقنع الأبله.... بأنه أبله .. وهمه أن يدرك المدرك.... أنه مدرك .. كما همه ان يعرف الجاهل جهله ...

تعلم (ود حمدان) أنّ تاج الزهرة وإن تعاظمت نضارته، وإن اشرأبت بتلاته، فهو إلى انتكاسة وتقاعس ونهاية قاتمة ...

وتعلم أن الشباب إذا رق وعدل وامتلأ عوده، فإن الشيخ القادم من بعيد، سيبدل الحال إلى النقيض ..

كما تعلم أن لكل شيء نقيضه، وان كل شيء ذو ارتجاج.... طالما أمكن أن يكون حكمه الزوال ...

تواردت الحكم من مفتر **(ود حمدان)**... متداعية... من مخزونها ناتج ذلك التعلم الـذي أصـابه **(ود حمـدان)**، كانسـياب مـاء الخريـف فـي أوديـة **كردفـان** ... سلسـاً سلسبيلاً يداعب أفنان **(الليون)** الزاهية الاخضرار ... يلثمها حيناً، وينفذ من صخرة ميسورة الحال أنهكها الخرير، فأصبحت على شفا شفير من السقوط ... وبراعم تجرى علـى المـاء كمـا الفئـران إلـى أجحارهـا تجـري، تتلقفهـا موجـات الـدل اللينـة الظهـر وتغمسها ثم تعفوها ... وتسمع صوتها **ك ...(إبريـق)** يجود بمائه على كف ظمآن ملهوف...

وغير ذلك الكثير .. الصور تتابع في شريط ممشوق طويل طيب الأثر ، يبث الآمال وشوق اللقاء في النفس، كأطيار تزق الحب في أفواه الزغب، من بعد طول فراق ...

يبدو أن **(ود حمدان)** و **(كردفان)** أملان... كل حسب ما يبدو لنظيره .. فما غابـا إلا وانهمـر سـيل مـآقٍ مـن بـين الروابـي يلهـث ويسـتغيث ... ومـا غفيـا إلا والرضـاب يتجسـد علقمـاً وحـنظلاً، كـذاك الـذي يتعـالى مشـرئباً مـن بـين شـجيرات **(الخروب)** على قمم التلال .. وما سهيا إلاّ وبكيا بنهمٍ على طول فراق ، وعلى جرم يأبى الأبيّ على موالاته، حتى ولو كان على قسر ....

الفروع إلى أصل، والأصل لا ينم إلا عن أصل... فالمر ليس حلواً .. والكريم ليس بخيلاً.. والسماء ليست أرضاً... فالكل إلى مرده ومنبته.

لهفي عليك (كردفان) لقد بات الطوى،
يتدثر من برد الأركان والحواشي، وأصبح الأذى،
نزيل أودية طالما أينع زرعها ساعة خريف مضى...
لقد نزف القحط بواديك وأدمى ،
فيبس العود وانحنى،

وأصبحت النظرة محدودة المدى،
تئن إذا ما السحاب كان المبتغى،
فهي ما دون ذلك و أنكى ..
والسمع المرهف الحس ،
بدأ فيه الطبل كالصخرة الجلمود،
لا رنين يعلو ولا صدى.

الهوينا أصبحت المشية الثلاثية الأرجل... انقياداً أعمي، يتلمس في ظلماته طريق دكان " **ود السيد** " في نهاية **(الزقاق)** الذي يمر ببيت العجوز **(بت مريم)** أم شلوخاً مطارق، تلك التي عبثت بها تجاعيد، سكبت عليها سنوات العمر من طياتها الجلدية، فعجنت مجاري الدمع فيها ظلالاً من سواد قاتم، ينبؤ بالتقادم، وهناك حيث ترقد عربية... **(ود حامد) المهجورة**... التي مكثت مكانها بعمر **(الزينة) بت (أخت العجوز) الوسطى،** التي ما ذكر اسمها الا وتحدث الحاكي عن **أنها:**

(ولدت يوم ما قرش "ود حامد" عربيته الهلكانة ... قدام بيته) .

لازال ينبوع (ود حمدان) يتدفق علماً، تغمره ذاكرة حية نابضة متجددة أبداً، فهي نامية متطورة...كيف لا و (الباهي) يتجدد في تعلمه كل لحظة وكل سانحة!...أليس هو من قال:

لهفي على كردفان اليانعة ... عاصرة الحليب من بين شفتي صغيرها الرطبتين ... أصبحت بائعة لبن بل مازجة لبن .. ثلثان من ماء (البرمة) والثلث من أثداء ضامرة الأحشاء المغلوبة على أمرها .. بعد ما يبس الكلأ وتوارى ...وساد الجفاف المكان...

(كردفان) بائعة الصديد في أسواق الصغار، الذين لا يدركون المكونات، ولا يعرفون المضمون .. الأطفال الذين يستسيغون كل ما هو آت فى الفجوة ما بين الفكين .. يلعقون في نهم ولا يبصقون أبداً، فإنه قد لا يعود اذا ما مضى ...

حين كان **(الباهي)** طفلاً، ما رضع يومها من إباء واستخارة، وما بكى يوماً لقلة زادٍ أو تغيير طعم .. إذ أنه كان **مطمئناً**، على عكس صغار **كردفان** بائعة الشقاء عند صلاة كل جمعة .. الذين أخذوا على مثل "**الصيف ضيعت اللبن**"... لقد بات وابل الخريف أذى وهذا ما يؤرق **(ود حمدان)** حينما يمشي خاطره في **(الزقاق)** ما بين **عربية (ود حامد)** المهجورة، **و دكان (ود السيد).**

في كثير من الأوقات يغمغم (الباهي) مسلياً نفسه، بما حفظه قديماً من أبيات شعرية، أو أمثال، أو أقاويل غير مسنودة لأحد بعينه...يستوحي كل ذلك من إفرازات ما تعلمه في ماضي أيامه...حسب ما يداعب نفسه من مشاعر وأحاسيس:

الفقر ممقوت لدى البخلاء
كما الحياء مصبوغ على الشرفاء

إن الفقير وان تعاظم قدره
مبتورة آراؤه مشلولة الأعضاء

عبثا يلقي ما بالعوائق على **(الباهي)** الذي ما حمل إلا واحتمل، فأصبح لا يميز بين الثقل واللاوزن ... **(سبهلل)** ... كما يصفه الغوغاء المشاهدون، الذين لم يدركوا أنه انطوى على ما لا يميزه أمثالهم، من حملة الرايات السود، القانعون بما لا ينالون، والواقفون على شفا شفير من الفُرقة والمغادرة.

يرى الباهي أن الفقر ليس عيب الإنسان وإن أطال عشرته ، وليس **الفقر** ميقات زماني أو مكاني وجب أن نبدأ منه ... إنما تعيير الفقير هو عيب الإنسان غير المدرك . ليس " **ود حمدان**" فقير عقل ولا فقير مالٍ ... فهو لم يسلب الغطاء يوماً عمن يعانى قلة مالٍ أو قصور عقلٍ. فقير المال لدية ليس فقيرا ، وفقير العقل ليس منبوذا، فكلاهما يتوق إلى التغيير وإلى تبديل الحال إن شاء الله له ذلك .

فإن هي نظرت أشفق الباحثون على الضحية ... وإن أعلن فوها انبثاق الابتسامة الدافئة على صوت الباحثين، يتجادلون فيما آل إليه موقف الضحية ، وإن قالت حرفا أو بضع كلمة، صمت الكل إجلالاً وعجز عن التطاول .. فقد حظيت بكل ما قد يبدو مستحيلا لأترابها في عين زمان مضى ، كانت قل ما تجود بابتسامة وندر أن أزاحت الستار عن كلمة حانية، لكنه إن حدث فالسلام على الحاضرين، وبخاصة المتأملين في مواضع نثر الكليمات الدقاق... الرقاق....

عندما تحس هي بجمود خواطر الفاغرين أفواههم، وترغب في إزالة الغشاوة عن نواظرهم الشاردة... فهي توكل لهم مهمة البحث عن **الحقيقة أو التعلم،** فيرتابون في أمرهم وينحون باللائمة على **(لباهي ود حمدان)**، أميز الحاضرين من جانب الخلط وعدم الوفاق .. الذى ما ربت على ظهر غرير، إلا وتضجر الوليد وقاسى ، وما حنا وأشفق، إلا وكيل له الصاع صاعين على النقيض ...

إلاّ أنّ **(ود حمدان)** حديث عهد بالرواية والتقلبات الطبيعية .. يسام اذا هبت الريح من الشمال ذات خريف، ويكال عليه اللوم إن أمطرت السماء شتاءً .. فماله واللا إراديات .. انه الخواء الفارغ ، الذي لا يأذن إلا بالمستحيلات من الأشياء، وإن تعاظمت المصيبة **ف..(ود حمدان)** لا يأبه كثيرا للشكليات والعواطف المتداركة لبعضها، ولا يسمح لأُذنيه أن تعارا، لتمتصا رنين الوتر الواحد المستباح، للتكرار والملاحقة....

فينطبق عليه ما يقال في الرجل الأول من **الرجال الأربعة:**

(رجل يدري ويدري أنه يدري).

وهو نغيض **الرجل الرابع:**

(رجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري).

(فالرجل الأول **عالم** ... أما الرجل الرابع **فجاهل).**

لا شك أبداً فالبون شاسع فيما بينهما.

(ود حمدان) بعض من الشكليات، لكنه لا يعترف بشكلياته المتأججة بين الذاتين، ذات الوضوح وذات الغموض....

وبدأ ود حمدان وكأنه يقول:

آه عليك يا زماني، فقد أدرت كأس الحنظل مرة أخرى على من كانوا بالحانة 00 وجرعته من كنت قد أدميت منهم الأحشاء ... أحمدك ربي على أن ما تم وغاض ارحم مما يطال انتظاره، فقد انكفأ على الأريكة ... وانحنى العود من بعد الاستقامة.....

هكذا كان ابتلاء **(ودحمدان)** أن يشان وضعه بقصاصة لا منطقية، وأن يكال عليه الوبال والخزي، فبعد الفصاحة وحلاوة التلاعب بالكلمات، أصبح **(غير منطقي)!** تتصارع أمامه ومن خلفه النبرات وكأنه لا يعي ... أكان " **ود حمدان** " ... في مدار الإدراك ساعتها؟ أم أنه انطوى كما رمي به؟ لا يثير حواسه إلا ما هو موضع الأصالة والكلم ..

كان يدرك أنّ زمانه ما استشاره أبداً قبلها، يحذو نفس حذوه، عندما لا يسقى سلافاً ذات صباح، وحين ما يدار له ظهر المجن ، أو حين ما **(تترادف)** قدماه في التحول من الزلة إلى الأخرى ... تتلمس النجاة في الوحل المنسوج وبين طيات الخيال .

عيون الحكمة والمنطق ذرفن كثيراً وأغدقن مما يحتوينه ، بكل ما عظم حين أدركن أن عمادا قد ينهد، ويوشك أن يضمن في صفحات النسيان، حين أدركن أنّ الخيال إذا توجب عليه الفرض، تجرد وتبرأ عن كينونته ... وحين أدركن أن السجية إذا داهمتها السيول، تشبعت أطرافها وزادتها سجايا .. ليت كل ما يجري كان نسج خيال او طفرة تهوي إلى منتهى، عند إشباع الغريزة، أو سد الحاجة، فالكل هو...هو وكأنّ شيئا لم يكن....

ذرفن أغلي ما يمتلكن حين توجب عليهن ذلك، فسددن الدين وإن عظم ، وما رغبن فى كيل الصاع صاعين ، فهن يسبحن في نواح الإدراك بكل عنفوان السباحين..... فليت كل ما يجري كان نسج خيال، أو طفرة تهوي إلى منتهى .

يمضي **(الباهي)** لا يلوي على شئ، يناضح الأسى، ويقاسم الملمات الرزء والكدر، يحدوه ما يحدو الجياع في أطمارهم .. يبسطون أيدٍ تتصاغر من الذل ، يقتاتون من بقايا الفضل المستباح .. على فتات ما ينثر من خزي ما يرفضون ... يتقاطرون على مبتور الرغيف، في نهم أقرب إلى العادة منه إلى الجوع .. يتلقفون الكلم والداء على حد سواء ، فالأطفال الصغار الذين يركلون، والذين لا يقوون على اجتياز **دروب** النمل المتناثرة المكتظة، حين يتداعون سعياً إليها، على لهفٍ .. والكادحون من النمل الأسود والأحمر يصارعون الضياع .. يلتهمون الحصى والشوائب، يتخطون الحواجز من حجارة وحصي فى رشاقة وتكالب....

يموجون عند الثنايا كثوب رقيق، تداعب طياته نسمة ريح عابرة .. ويتطاير البعض بعيداً، كما تناثرت قطرات طلٍ، أنهكتها تباريح الأشعة الساطعة....

الكل موفور العافية كما يبدو للناظر...وبالداخل تترنح أبجديات الكفاية... وتستدير أعين الرضاء ... بينما الضائعون ينبشون فى غياهب متاهات الكادحين .. بتلذذ وخور... يمحون كل رسم خط من أمد لاجتياز **محن** الزمان.. يبحثون عما توارى خلف جدران لا يباح فيها الجهر .. فهم يدركون النهايات قبل البدء .. ويعرفون العواقب قبل التفكير والإقدام ...

(ود حمدان) مشدود الجوانح، فهو من **هؤلاء .. ومن هولاء**، يحمل منارة الكد ويتدثر بثوب الضياع .. فحينما يبسط كفه اليمني قصد بذلك الأخذ بقوة ... من غير الرجاء عندما تصحبة نعمة القناعة ... لكنه حين يهم بالقول .. فهو أسير نصوص ثابتة، لا يشوبها التغيير ولا يطرأ عليها التحول والتبديل، بالتقديم أو التأخير ..

فهو يجتر أقاويل القدامى عندما يوشح بالشد والانبساط، ويخلد لتيارها البارد عندما تنتابه الحيرة فى غير عطاء .. ولكنه ما زال كما كان في الماضي، بغض البصر عما يغض ويرسله منطلقاً فيما دون ذلك ..

" النفس لدى **(ود حمدان)** أصبحت تتأرجح .. على حد ما يري .. من غير حدود واضحة للعيان .. تبدو كما تشاء او يشاء لها .. فهي بلا هدف تحبو على الماضي .. وتقف على الآن وقد تكون على غير ذلك، أو تضم النقيضين في وقت قد لا تصاغ كينونته بما ينبغي .. فتارة هنا وأخرى هناك.

الانشراح والعبوس في وجه الحاضر، سيان في أمر الواقع لدى **(ود حمدان)** فهما من غير معنى، أو أنهما يحملان من التعريفات مالا يتطابق وأصل ما من شأنه أن يكون وصفاً .. فالندم قد يقود للعبوس، والتطاول والقناعة قد يؤديان لنفس

الغرض .. أما حب الذات، فهو غرض من الأغراض، تصطحبة نغمات الرضاء ونفثات الكآبة في ذات الوقت .. فعندما تزل قدم تتشبث الأخرى بعالق قد يقوى وقد يخر، وهكذا النفس سائرة بين هذا وذاك، على غير الوفاق او السبق فى تحديد الوجهة .

الرضاء على السطو والقهر والتلذذ بإنزال المجنبين منزلة الدونية ، نزوة مباركة لأمثال هؤلاء .. وكرامة المكانة وسموها لأمثال هؤلاء .. والتحسر على الماضي، مدعاة لكسب عطف المجنبين أصلا، والقادرين عندما يرخي **(ود حمدان)** السمع، ويرفع الصوت عالياً في آن واحد، وهو تناقض كما يبدو، إنما **(ود حمدان)** يحس وطء التضارب هذا ويصفه مصاف اللامبالاة....

ويمضي الحال والكل فى شد وانبساط .. والكل يعيد الآمال ، وان تصارعت النظرة على الهوية، وعلى وضع الصيغ والقواعد .. بهذا التداخل ينحدر كل شيء إلى الأصل الذي أصبح **ل..... (ود حمدان)** بمثابة الحصول على قطعة خبز، أو فتات من ثمار الوهم، بين متاهات أجحار النمل .

ليت **(ود حمدان)** أراد العود إلى وادي الرجاء .. فقد خارت قوابض الأعنة تدحوها النوازع عند الالتفات .. فالمضي عثرة كخطى **(الباهي)** عند بداية النهايات .. والركن لما يجري عقبة كالوقوف لدى الشرفات محجبة النوافذ .. والتسامق كشف حساب قد يختار التمعن والتحميص على التجاوز واللامبالاة .

لكن ما بال **(ود حمدان)** فاتر المجاميع .. تتداخل في خلده كمن زح بنفسه عنوة فى اللاوجود... فالأسف لا يُعبر عنه إلا بلغة التبديل... لغة التشكيل والتصنيف .... فالفردية أصل، إنما التجاوز للدقائق يجعلها مصف الجماعية.. الفردية قانون ضيق الحيز، يسري مفعوله بداخل أفراده، وقد يعجز على حامل

القانون أن يرجّح كفة دون أخرى، فالجميع أعضاء في البناية .. أما حيز المجموعة فالقانون يصبح لديه ملجأ واستراحة، عندما تنجح عناصر الشر في اداء مهامها ..

فأعضاء المجموعة يحبون بعضهم البعض... ويكرهون بعضهم في نفس الوقت ... يتباغضون إلى أبعد ما يكون وسرعان ما يندمون ... على عكس بناية الفردية فهي تتآخى أبداً لأداء دورها ... وما ميولها إلا حينما بدأ الأفراد بأسباب الثبات، فالزوال لا يأتي للميول طوعاً .

أضحي الشتات شعباً تمزق نسج بعضها، بكل جلافة المتعصب المؤمن بما يعتقد .. فمن يراقب يحال إلى ازدواج.... والمتعدى يفوت مأرب الشُعب المتناثرة الجهد، وما أراد (الباهي) أن يأتي فوق النقائض، وان يستريح على خبل الآخرين، الذين يضعون (ود حمدان) في مصافهم عندما يستريحون بعد الجهد .

هاجت الذكرى فجاء في الخاطر، ما خلفته ساعات البعاد عن الأوطان، من معاناة وأشجان متدافعة... **ومتداخلة ف.....**

الحال ميسور يحمد الله،
ياكل لقمة بى مفروكة طول العام،

وكباية شاي في صبحية طول العام،
وجقمة موية من حنفية طول العام،

(يكوضم)...(السفة) تحت الشفة...
ويعاين فوق.....
و (يدنقر) التقول مخبول،

ويتذكر ناساً بعاد و عزاز....
رقادة حصير وقلبه سرير يلولي الهم،
يشيل الغم.

ويتذكر ناساً في الفريق ضايعين...
ومحتاجين ل...(ملوة) عيش،
وجرعة موية عز الصيف،

ناس جار الله ود عبد الله،
ألفي (الصقيعة).. بعيش.
ناس التومة بت احمد،
أُم ميمونة بت الزين،

ست بنات (الفجّة) والحلال....
التستر الحال،
وست البسيمة الحلوة...
الزى (ضي) البريق الشال....
وكتين يضمو الليل.

الخشيم وديعة الخالة بت أحمد،
منضومة فى معلاق،
تحت عنقور سدر،
مجدول.....

يطول الهم ويتذكر!

ناس السرة بت الجاك،
التجيب من داك و تخت لى دا،
وتشيل من دا وتفوت لى داك.

حسين يشهق ويتنهد....
ما همومه كثيرة فوق للحد،
وزادت جد....
دا ما انفتحلو مليون قد...
ومليون فجوة ما بتنسد،

ضريبته كبيرة دا ما موظف...
ومو مجهول،
وتجديد جوازه الحال عليه الحول...
كلام يزيد الهم...
يفوت القول،

ستة ألف ريال
ضريبة هم،
ضريبة ذكرى،
وضريبة دم....
ضريبة شوق،
ومشواراً طويل مكتوب...
عليه الشوك،
يحرق الجوف،

وزى ما تشوف،

حسين موجوع ملاه الخوف،
من المجهول ومن القول:

حسين يايمة ود التابة،
حولين بايمه... خدمته خرابة،
حولين ولا مليم...

ولابيتاً يغتي يتامى،
ولا راكوبه بى شكابة...

يطول الهم ويتذكر،
القدلة فى الحاحاية،

والنومة في القطية....
والقعدة فى ضليل عصرية...

وفى المرواح بقرته تقيف وعجلته تقيف،
وأمه تقول: أقرن العجلة...
ياوليدي...
أخيانك بدورو الشاي،
والمبروك أبوك فى الوادي..
بصل جيعان...
ومتحسس.

أخال **(ود حمدان)** يتمزق ما بين الفينة والأخرى...
فالأمر عسير،

والخواطر تكلى لديه،
تتلمس دروب البقاء....وإن شاكت وقست....
إلا أنّ **(الباهي)** لا يزال صامداً،
فقد منحته نوائب الدهر القوة... بعد القوة،
فما عاد للاستسلام مساحة تذكر عنده،
ولم تعد دوائر الأيام و قسوتها... تلوي له عنان،

هكذا أخذ على أن تأتيه الرياح بما يشتهي... أو بما لا يشتهي،
فالحالان شبيهان،

وهو لا يفتأ يردد مقولة... **خالي ...(حاج عوض الله ود عبد الله) الشهيرة،**
وهو يضرب بقبضته اليمنى، على باطن كفه الأيسر ويقول:

(الكلام النتيجة!).

والله ولي التوفيق،،،،،،،،